تفسير القرآن الكريم

تفسير سورة السجدة



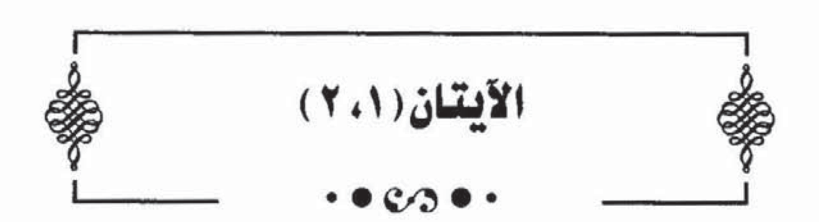
سورة السجدة

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ. وبَعد:

قال المفسر[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: [سُورة السَّجْدة] الإضافة هنا بَيانية، يَعنِي: السورة التي تُذكَر فيها السَّجْدة، والسَّجْدة ستَأتي -إن شاء الله تعالى- في أثنائِها.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [وهي مَكِّيَّة ثلاثون آيَةً] وكلُّ سُورة مُبتَدَأَةٍ بالحُروف الهِجائية فهي مَكِّية إلَّا سورَتَيْن: البَقَرة وآل عِمرانَ فإنهما مدَنِيَّتان، وإلَّا فكُلُّ سُورة ابتُدِئَت بالحروف الهِجائية فهي مَكِّيَّة.

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).



الآيتان (١، ٢)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [السجدة:١-٢].

• • • •

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿الٓمٓ﴾ الله أَعلَمُ بمُراده به].

وسبَقَ لنا أن العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ انقَسموا في ذلك ثلاثةَ أَقْسام:

قِسْم ادَّعَى أن لهذه الحُروفِ مَعانِيَ، وأنها رُموز لِتِلكَ المَعانِي، وهذا قَوْل لا دليلَ عليه، وهو ضَعيف، بل باطِل.

والقول الثاني: أن لها مَعانِيَ، لكن الله تعالى أَعلَمُ بها فتكون من المُتَشابِهِ الذي لا يَعلَمه إلَّا الله تعالى.

والقِسْم الثالِث: يَقولون: إنه ليس لها مَعانٍ أصلًا؛ لأن القرآن نزل باللِّسانِ العَرَبِيِّ، واللِّسانُ العربيُّ لا يكون لهذه الحروفِ معانٍ أبدًا، وهذا قولُ مُجاهِدٍ[1]، وهو الصَّحيحُ؛ أنَّه لا معانيَ له.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كيف تَجْزِمونَ بأنَّه لا معانيَ لها، والنَّفْيُ يحتاجُ إلى حُجَّةٍ؟

قُلْنَا: نجزم بذلك؛ لأنَّ القرآنَ نزل بلسانٍ عربيٍّ مُبِينٍ، واللِّسان العربيُّ ليس فيه

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٠٩)، وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٧٠).

هـذه الحروفُ الهجائيَّة، وهذه الحروفُ في اللِّسان العربيِّ معناها أنَّها حروفٌ يكون منها الكلامُ فقط، ولكنْ ذكروا أنَّ هذه الحروفَ الهجائيَّـةَ لها مَغزًى؛ وهو إظهارُ عَجْزِ هؤلاء المُكذِّبينَ بأنَّ هذا القُرآنَ من هذه الحروفِ التي تكوِّنونَ منها كلامَكم، ومع ذلك فقد أعجزكم، فهو لم يأْتِ بشيءٍ بديلٍ، إنَّما أتى بالحروف التي تُركِّبونَ كلامَكم منها؛ قالوا: ويدلُّ لذلك أنَّـكَ لا تكاد ترى سورةً ابتُدِئَتْ بهذه إلا ويليها ذكْرُ القرآنِ.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: القرآنِ، المرادُ بالكتابِ القرآنُ، وهو فِعالٌ بمعنى مفعولٍ؛ أي: مَكْتوب؛ وسُمِّيَ كتابًا؛ لأنَّه كُتِبَ في اللَّوْح المَحْفوظِ، وفي الصُّحُفِ التي بأيدي الملائِكَة، وفي الصُّحُفِ التي بِأَيْدينا؛ ولهذا سُمِّي كتابًا.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مبتدأٌ] أي ﴿تَنزِيلُ﴾؛ لأنَّ الكتابَ مضافٌ إليه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا رَيْبَ﴾ شكَّ ﴿فِيهِ﴾ خبرٌ أوَّلُ] ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يعني: أنَّ تنزيلَ الكتابِ مؤكَّدٌ ليس فيه رَيْبٌ، وهل النَّفيُ هنا على بابِهِ، أو هو نَفْيٌ بمعنى النَّهيِ؛ أي: لا تَرْتابوا فيه؟

الجوابُ: فيه قولانِ: فمِنَ العُلماءِ من يقولُ: إنَّ النَّفْيَ هنا بِمَعْنى النَّهْيِ؛ فمعنى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا تَرْتَابوا فيه، وبعضُ أَهْلِ العِلْمِ يقولُ: إنَّ المرادَ بالنَّفْيِ حقيقَتُه، والمعنى: أنَّ هذا الكتابَ ليس فيه رَيْبٌ، وإذا لم يكنْ فيه رَيْبٌ لَزِمَ مِن ذلك النَّهْيُ عَنِ الرَّيْبِ؛ لأنَّه إذا انتفى الرَّيْبُ في القرآنِ فلا يَحِلُّ لنا أنْ نَرْتَابَ فيه.

وهذا القَوْلُ أَبْلَغُ: أن يكونَ بالنَّفْيِ ليس فيه رَيْبٌ، سواءٌ ارْتابَ فيه مَنِ ارْتابَ أمْ لم يَرْتَبْ، فهو حقيقةٌ لا رَيْبَ فيه.

والرَّيْبُ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّه الشَّكُّ؛ ولكنْ ذهب بعضُ أَهْلِ العِلْمِ إلى أنَّه لا يوجدُ كلمتانِ مترادِفتانِ في المعاني، بل لا بدَّ أن يكون هناك فارِقٌ، وقالوا: إنَّ الرَّيْبَ شَكٌّ مع قَلَقٍ ورِيبَةٍ؛ وليس مُطْلَقَ شكٍّ، بل هو شكٌّ خاصٌّ، وهو الذي يكون فيه القَلَقُ والارتيابُ، وكونُ النَّفْسِ يكون معها انشغالٌ بخلافِ الشكِّ المجرَّدِ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خبرٌ ثانٍ] والمعنى: تنزيلُ الكتابِ مؤكَّدٌ لا رَيْبَ فيه، تنزيلُ الكتابِ من ربِّ العالمينَ.

وعلى هذا فيكون الخبرُ الأَوَّلُ جملةً؛ فالخبرُ الأَوَّلُ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ جملةٌ؛ لأنَّ ﴿لَا﴾ نافِيَة للجِنْس و﴿رَيْبَ﴾ اسْمُها و﴿فِيهِ﴾ خبرٌ، وهو جُملة، والخبرُ الثاني ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ شِبْه جملةٍ من جارٍّ ومجرورٍ.

وقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ربُّ العالمينَ الذي خَلَقَه ومَلَكَه ومَلَكَ التَّصرُّفَ فيه؛ والرُّبوبيَّةُ تشملُ ثلاثةَ أشياءَ: الخَلْق، والمِلْك، والتَّدبير

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المرادُ به ما سِوَى الله عَزَّوَجَلَّ، وسُمِّيَ ما سِوَى الله عالَمًا؛ لأنهم عَلَمٌ على خالِقِهم، وما من شيءٍ إلا فيه آيةٌ من آياتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَشْهَد له بالوحدانيَّة والقُدْرةِ والعِزَّةِ وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني أنَّ تنزيلَ الكتابِ من الله لا إشكالَ فيه، فليس قولَ محمدٍ ولا قولَ جبريلَ ولا قولَ أحدٍ من الخَلْق، بل هو مِنْ رَبِّ العالمين وَحْدَه.

ويجوز في الإِعْرابِ أن نجعل ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في مَوْضِع نصبٍ على الحالِ: ذلك الكتابُ خاليًا من الرَّيْبِ؛ من أين هو؟ الجوابُ: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ويجوز أن نَجْعَلَ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبرًا واحدًا؛ و﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ حالٌ من قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ فتَجْعَلُ الجُمْلَتَينِ خبرينِ، أو إحداهما خبرًا والأخرى حالًا.

وعلى كلِّ حالٍ: فمعنى الآيةِ الكريمةِ أنَّ تنزيلَ الكتابِ أمرٌ لا شكَّ فيه، وأنَّه ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أيضًا لا شكَّ فيه، وعندي أنَّ أَحْسَنَ ما يُقالُ في الإعرابِ: أنْ يُجْعَلَ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو الحالَ؛ تنزيلُ الكتابِ من رَبِّ العالمينَ لا مِن غَيْره، و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يكونُ حالًا.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ القرآنَ الكريمَ لم يأتِ بجديدٍ؛ أتى بالحروفِ التي يتكلَّمُ بها النَّاس، ومع ذلك أَعْجَزَهُم؛ يؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ لأن الصَّحيحَ أنه ليس له معنًى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن القرآنَ كلامُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وجه ذلك: أنَّ القرآنَ كلامٌ وأضافه الله إلى نَفْسِه، فيقتضي أن يكونَ كلامَهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ عُلُوِّ الله؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ والنُّزُولُ لا يكون إلا مِنْ أعلى.

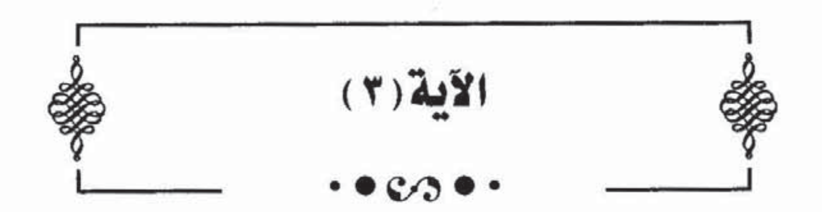
الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ أن القرآنَ الكريمَ مكتوبٌ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَـٰبِ﴾ ولقد سبق لنا أنه مكتوبٌ في لَوْحٍ مَحْفوظٍ، وفي الصُّحُفِ التي بِيَدِ الملائكة، وفي الصُّحُفِ التي بأيدينا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تأكيدُ أنَّ هذا القرآنَ مُنَزَّل مِنْ عند الله؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ ربوبيَّةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لجميعِ الخَلْقِ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الإشارَةُ إلى أنَّ هذا القرآنَ مُلزَمٌ به جميعُ النَّاسِ؛ تُؤْخَذُ من قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فإذا كان ربُّهُم الذي أنزله فمعناه أنه يَلْزَمُهُم جميعًا العَمَلُ بهذا القرآنِ.

• • ۞ • •



الآية (٣)

• • ෴ • •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة:٣].

• • ෴ • •

ثم قال: [﴿أَمْ﴾ بل ﴿يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ محمدٌ؟ لا].

﴿أَمْ﴾ يقول المُفَسِّر إنَّها بمعنى [بل] إذَنْ فهي للإضراب الانتقاليِّ، وليست للإضراب الإبطاليِّ؛ لأنَّها لم تُبْطِل ما سَبَقَها، ولكنَّها مع ذلك مُضَمَّنَةٌ معنى بل والهمزة، وأَصْلها: بل أَيَقُولون افْتَراه؟ والاسْتِفْهامُ في هذه الآية للإِنْكارِ بدليلِ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا]، يعني أنه ليس مُفْتَرًى، والافتراءُ معناه الكَذِب، فمعنى ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: كَذَب بادِّعائِهِ أنَّه من عند الله.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: القرآنُ أو الكِتابُ؛ كما عبَّر الله به.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي: الثَّابتُ الذي لا يَتزَلْزَل، وهو الحقُّ المشتَمِلُ على كلِّ خيرٍ.

وقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ حالٌ من قوله: ﴿هُوَ﴾ يعني: حالَ كَوْنِه من ربِّك، وتأمَّلْ في الآية الأُولى قال: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهنا قال: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ لأنَّ الذي اتُّهِمَ بالافتراءِ هو الرَّسولُ ﷺ، فأراد الله تعالى أن يُبيِّنَ أنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يُمْكِن أن يَفْتَرِيَ الكَذِبَ؛ لأنَّ له من الله ربوبيَّةً خاصَّةً وهي قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ فالرُّبوبيَّةُ هنا

ربوبيَّة خاصَّة؛ ثم بيَّنَ الله الحكمةَ من ذلك قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمًا...﴾ إلخ.

والحكمة من اختلافِ التَّعبيرِ بين قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ وهو أنَّه لما أراد أن يتبع أمْر القرآنِ من حيثُ هو قرآنٌ بيَّن أنَّه نازلٌ من ربِّ العالمين الذي يَعْتَمِدُ عليه هؤلاء العالَمونَ، فنُزِّلَ عليهم الكتابُ؛ لأنه لما كان ربَّ العالمين وجب على جميع العالَمِينَ أن يَقْبَلوا هذا وأنَّه من ربِّنا؛ أمَّا في قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ فلأنَّه لما نُسِبَ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى الكَذِبِ في هذا القرآن ذَكَرَ الله تعالى ربوبيَّته الخاصَّة: ﴿مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ﴾ إشارةً إلى أنَّه رسولُ الله، وأمَّا المُنْذِرِ في القرآن فهو ربُّه الذي يعتني به ويَرُبُّه ربوبيَّةً خاصَّةً.

ففي الأوَّل من حيث وَصْفُ القرآنِ بأنَّه قرآنٌ قال: ﴿تَنزِيلُ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وفي الثاني قال: ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الذي يَرُبُّكَ ربوبيَّةً خاصَّة، وأنت مربوبٌ له.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمًا﴾ المفعولُ الثَّاني محذوفٌ تقديره (به)، ولكِنْ في المسألَةِ نَظَرٌ، إن كان مفعولًا به ففيه نظرٌ، ولكن لا شكَّ أنَّ التَّقْديرَ (به)، وأنه هو آلة الإنذارِ التي يُنْذَر به أي بِسَبَبِه، ولكن المفعول الثَّاني محذوفٌ عُرِف في غير ما ذكره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿لِتُنذِرَ﴾ به ﴿قَوۡمًا﴾ العذاب، وإنما اخترت ذلك لما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فُصِّلَت:١٣]؛ وقد بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ في آيةٍ أخرى ما هو المنذَرُ به.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَّآ﴾ نافِيَة ﴿أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ بإنذارِكَ] قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ [﴿مَّآ﴾ نافية] وفي سورة يس: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [يس:٦] وهذا الذي قرَّره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ-أنَّ (ما) نافية- هو الصَّوابُ في إعرابها، وإن كان بعضُهم ذكر

أنَّها اسمٌ موصولٌ؛ أي: لِتُنْـذِرَ قومًا الذي أتاهُم مِن النُّذُرِ قبلك؛ يعني: تُنْـذِرُهم العذابَ، وعلى هذا الرَّأي تكون (ما) اسمًا موصولًا، وهو المفعولُ الثاني في الجملة، لكنَّ الذي مشى عليه المُفَسِّر أَصْوَبُ: أنَّ ما نافية.

والخلاصةُ في إعراب (ما) قولانِ:

أحدهما: أنَّها نافِيَة، فيكون معنى الآيَةِ الكريمة: لِتُنْذِرَ قومًا لم يَأْتِهِمْ نذيرٌ قبلك.

القولُ الثاني: أنَّ ما اسمٌ موصولٌ؛ أي: لِتُنْذِرَ قومًا الذي أتاهم من النُّذُر قبلك.

والصَّواب الأوَّل.

والعرب لم يُرْسَلْ إليهم رسولٌ بعد إسماعيلَ إلا محمدٌ ﷺ؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أنا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ**»[1] في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ ...﴾ إلخ.

وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، **إِذَا قَالَ قَائِلٌ**: ما هي الفائِدَةُ في وَصْف هؤلاء القوم لِكَوْنِهِمْ لم يأتِهِمْ نذيرٌ من قبلُ؟

الجوابُ: الفائِدَة في ذلك أمران:

الأمرُ الأوَّلُ: بيانُ شدَّة حاجَتِهِم إلى الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأنَّهم في غايَةِ ما يكون من ضرورةٍ إلى بَعْثَتِه.

الأمرُ الثَّاني: بيانُ نِعْمَة الله عليهم بهذا الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ حيث إنَّه هو الرَّسولُ الذي أتاهم ولم يَأْتِهِمْ نذيرٌ مِن قبلِهِ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٢٧)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤١٨)، من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يكثُرُ في القرآنِ الكريمِ مثلُ هذا التَّعبيرِ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٢]، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩] فهل هو للرَّجاءِ أم للتوقُّعِ؟

الجوابُ: قال بعضُهُم: إنَّها للرَّجاء، ولكن باعتبارِ حالِ المخاطَبِ لا باعتبارِ حالِ المتكلِّم؛ لأن الرَّجاءَ هو الطَّمَعُ في نَيْلِ ما يَعْسُر إدراكُه، قد لا يتعذَّرُ، لكنه يؤمَّلُ إلا أنه فيه نوعُ شِدَّةٍ، والرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ لا يُمْكِنُ وَصْفُه بهذا الوَصْفِ، فيكون مُتَرَجِّيًا باعتبارِ حالِ المخاطَبِ.

وجملة (لعلَّ) للتَّعليل، وكونُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجعل الشَّيءَ علَّةً للشَّيء؛ ليس فيه نَقْصٌ، بل هو من كماله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يبني من الأسبابَ أسبابًا.

يَرِدُ على هذا القَوْل: أن العلَّة ملازِمَةٌ للمعلولِ، فإذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ لَزِمَ أن يهتدوا فما دَامَتْ علَّة، فالعِلَّةُ ملازِمَةٌ للمَعْلول: فلما جاءهم هذا النَّذيرُ يلزم اتِّباعُه.

والجوابُ على ذلك أن يُقالَ: إنَّ العلَّةَ علَّتانِ: عِلَّةٌ باعِثَةٌ، وعلَّةٌ غائِيَّةٌ، والعلَّةُ الباعِثَة مُوجِبة وغيرُ مُوجِبَة، وهذه كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] مع أنَّهم ما يعبدون الله كلُّهُم، وكقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٦٤]. ومعلومٌ أنَّ كثيرًا من الرُّسُل ما أُطيعوا، فيكون هنا العِلَّة الباعِثَة غيرَ الموجِبَة؛ يعني أنَّ الحكمةَ من هذا هو هذا، ثم قد تَحْصُل وقد لا تَحْصُل، ومثَّلوا لذلك بقولهم: شَرَيْتُ القَلَمَ لأكتبَ به، أو لهذه الغايَةِ، ولكن: هل يلزَمُ أن تَكْتُبَ؟

الجوابُ: قد تكتب، وقد لا تَكْتُب.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ الاهتداءُ هنا يَشْمَلُ الهدايَةَ: هدايةَ الدَّلالَةِ، وهدايةَ التَّوفيقِ؛ فإنَّ الرَّسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جاء بهدايةِ الدَّلالةِ، والتوفيقُ بِيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ، ولا توفيقَ إلا بعد عِلْمٍ؛ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بإنْذارِكَ].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيـانُ جُرْأَةِ هؤلاء المُكَذِّبين؛ لقولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: اخْتَـلَقَه وكَذَبَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ القُرآنَ حقٌّ غيرُ مُفْتَرًى؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ رِسالَةِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: عناية الله برسوله ﷺ؛ حيث أضافَ إليه الرُّبوبيَّةَ الخاصَّة في قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ الحِكْمَةِ في إنزالِ هذا القُرْآنِ؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ﴾ لأنَّ اللَّام للتَّعليلِ.

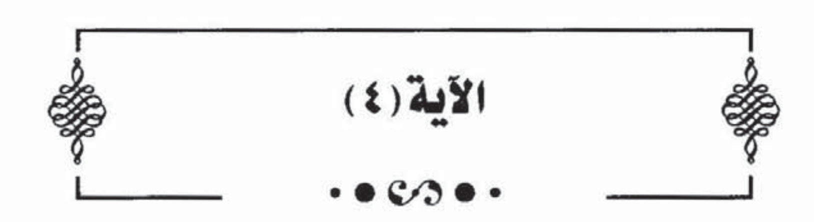
الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بيـانُ مِنَّة الله على هؤلاء الذين أُرْسِلَ إليـهِمُ الرَّسولُ ﷺ، تُؤْخَذُ من قوله تعالى: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: شِدَّةُ الضَّرورةِ إلى إرسالِ الرَّسولِ ﷺ؛ تُؤْخَذُ مِنْ كَوْنِه لم يَأْتِهم نذيرٌ مِن قَبْلِك، فهم في ضرورَةٍ إلى رسالَتِه، هذا على القَوْلِ بأنَّ (ما) نافِيَة، أمَّا على القَوْلِ بأنَّها اسمٌ موصول، فيُسْتَفادُ منها: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَنْذَرَ ما أَنْذَرَتْ به الأنبياءُ مِن قَبْلِه، فيكون إذن: مُصَدِّقًا لما سَبَقَه من الرِّسالاتِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الإنذارَ سببٌ للهدايَةِ؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وهذا يشْهَدُ به الواقِعُ؛ فكم من إنسانٍ اهتدى بما أُنذِرَ!

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثباتُ رَحْمَةِ الله تعالى بالخَلْقِ؛ حيث أرسل إليهم النُّذُرَ من أجل هدايَتِهِم.

• • ❁ • •



الآية (٤)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة:٤].

• • ✥ • •

ثم قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأٌ و﴿ٱلَّذِى﴾ اسمٌ موصولٌ خبَرٌ، و﴿خَلَقَ﴾ بمعنى أَوْجَبَ بتقديرٍ ونظام، وأنَّ الخَلْق في الأصل في اللُّغَة: التَّقْديرُ؛ كما في قول الشَّاعِر:

وَلَأَنْــتَ تَفْــرِي مَــا خَلَقْــتَ ... وَبَعْضُ النَّاسِ يَخْلُقُ ثُمَّ لا يَفْـرِي[١]

ويُطْلَقُ الخلْقُ على: الإيجادِ في تقديرٍ، وهو المرادُ به هنا.

وقوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هي الأَجْرامُ المحسوسَةُ، وهي سَبْعَةٌ، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ المرادُ بها الجِنْسُ، ويشمل جميعَ الأَرَضِينَ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يعني: والذي بينهما، وهو السَّحابُ، وكذلك النُّجُومُ والقمر وما أشبهها، وهذا يدلُّ على أنَّ هناك أشياءَ كثيرةً قد لا نَعْلَمُها إلى الآن، فإلى الآن نكتشِفُ أشياءَ كثيرةً مما بين السَّماء والأَرْض، ويدلُّ على أنَّ ما بين السَّماء والأرض أنه ليس مُجَرَّد سحاب فقط بل وراءَ ذلك؛ أن الله تعالى جَعَلَه قسيمًا لخلق السَّمواتِ والأرض، ولا بُدَّ أن يكون شيئًا عظيمًا يقابِلُ هذه المخلوقاتِ.

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، انظر: ديوانه (ص:٣٢).

وقوله تعالى: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَوَّلُها الأَحَدُ، وآخِرُها الجُمُعَة] وقد فصَّل الله تعالى هذه الأَرْبَعَة في سورة فُصِّلَتْ، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت:٩-١٠]؛ فالآن خَلْقُ الأَرْضِ في أَرْبَعَة أَيَّامٍ، ثمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت:١١-١٢] فتكون الأيامُ ستَّة: أوَّلُها الأحَدُ وآخرها الجمعة.

وهل هذه الأيـام كأيَّامِنا؟ أو كُلُّ يومٍ مقدارُهُ ألفُ سَنَةٍ؟ أو هي أيـام بمعنى ساعاتٍ أو لحظاتٍ؟

أقوالٌ؛ فمنهم من قال: إنَّها أيَّامٌ؛ يعني لحظات؛ لأن الله إذا أرادَ شيئًا قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧] وعبَّر بالأيَّامِ عن مطلَقِ الزَّمَن، ومنهم من قال: إنَّها أيَّام كلُّ يومٍ منها مقدارُهُ ألفُ سنةٍ، فتكون سِتَّةَ آلافِ سَنَة، ومنهم من قال: إنَّها أيَّام كأيامِنا، وإنَّ الأيـام أُطْلِقَت والمرادُ بها هذه الأيَّامُ المعروفَةُ، لاسيَّما وأنَّـه في سورة فُصِّلَتْ: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾، ﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ ولا يمكن أن نَخْرُجَ من قراءةِ القرآنِ عن معهودِ المَعْروفِ في اللُّغَة العربيَّة.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هذا القَوْلُ وإن كان ظاهِرَ القرآن يَرِدُ عليه أمرانِ:

الأمر الأوَّل: أنَّه لمَّا خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ ليس هناك شمسٌ حتى تُحدَّدَ بالأيَّامِ؛ فماذا نقولُ؟

الأمر الثَّاني: أن يُقال: لماذا سِتَّةُ أيام؟ ولماذا لم تكن في لحظَةٍ، أو تكون في أيامٍ طويلةٍ جدًّا في لحظة باعتبارِ قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ مهما عظُمَ الشَّيءُ،

في نسبـة طويلة باعتبارِ هذه المخلوقاتِ؛ يعـني لا يكفيها ألفُ سنـة ولا أَلْفَا سنةٍ ولا مائةُ ألفِ سَنَة، لأنَّ المخلوقاتِ عظيمةٌ لا يكفيها هذه المدَّةُ القصيرةُ؛ فإمَّا أن تُقاسَ بقُدْرَة الله أو تقاس بحَسَبِ واقِعِها، فإنْ قِسْتُـمُوها بحَسَبِ قدرة الله أنها في لحظَةٍ فالأيَّام السِّتة ليسَ لها معنًى؛ وإن قِسْتُمُوها بحسب واقعها لا بحسَب قُدرة الله فإنَّ المخلوقاتِ عظيمةٌ جدًّا منظَّمَةٌ في غايَةِ النِّظام.

فالجوابُ على هذينِ الإيرادَيْنِ:

الأَوَّل: أن هذا بِحَسَبِ عِلْمِ الله، والله يعلم متى يكون.

والثَّاني: والجوابُ عنه أن يُقالَ: هكذا قال الله عَزَّوَجَلَّ، وليس لنا أن نتعدَّى ما أخْبَرَنا الله به؛ لأنَّ هذا أمرٌ لا يَسعُنا الإحاطَةُ به، وقد قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف:٥١]. ونحن لا شكَّ نقيسُ هذه الأشياء بحَسَبِ قدرة الله لا بِحَسَبِ واقِعِها، فواقِعُها لا يعلَمُه إلا الله عَزَّوَجَلَّ فإذن يجب أن تُقاسَ بِقُدْرَةِ الله، ويُقال: إنَّ تقديرَها في ستَّةِ أيَّام حسَبَ ما تقْتَضِيه حكمةُ الله عَزَّوَجَلَّ، وليس لنا أن نتكلَّمَ في شيء من ذلك.

ولهذا، اليهود -لعنةُ الله عليهم- قالوا: إن الله تعالى خلقَ السَّمواتِ والأَرْضَ في ستَّة أيامٍ، ولما كان يومُ السَّبْتِ استراح! نعوذ بالله! وإنَّ يَوْمَ راحَةِ الله هو يومُ عيده، وجعلوا عيدَهُم السَّبْتَ وكَذَبُوا فِي هَذا فالله عَزَّوَجَلَّ لا يَتْعَبُ حتى يحتاجَ إلى راحةٍ.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمعنى علا، استوى على الشيء، وقد ذَكَرْنا فيما سبق أنَّ ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ وردت في القرآن على أَرْبَعَةِ أوْجُه: مُطْلَقَة، ومُقيَّدَة بـ(إلى)، ومُقيَّدَة بـ(على)، ومُقيَّدة بواو المعِيَّة:

١ - فإذا جاءت مُطْلَقَة، فهي بمعنى كَمُلَ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي: كَمُلَ.

٢ - وإذا قُيِّدَت بـ(إلى) فهي بمعنى القَصْدِ التَّامِّ؛ كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ وفي هذه الآية قولٌ ثانٍ: أنَّ استوى بمعنى علا: (ثم علا إليها) لكنْ هذا كغيره من الصِّفاتِ التي لا تُعْلَمُ كيفيَّتُها.

٣ - مُقَيَّدة بـ(على) وتكون بمعنى العُلُوِّ والاسْتِقْرارِ؛ كما في قوله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ وفي قوله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي: لِتَعْلُوا على ظُهُوره وتَسْتَقِرُّوا، ولم تأتِ بغيرِ هذا المعنى أبدًا في اللُّغَةِ العربيَّةِ، فإذا قُيِّدَتْ بـ(على) لا تأتي إلا بهذا المعنى، ولا تكون بغيره أبدًا.

٤ - مُقَيَّدَة بواوِ المعيَّة فتكون بمعنى تساوَى، فاستوى بمعنى تساوَى؛ كقولهم: «استوى الماءُ والخَشَبَةَ» يعني: استوى الماءُ مع الخَشَبَةِ؛ صارا سِيَّانِ.

المُهِمُّ هنا: هو ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ لا تأتي بصورة غير هذا المعنى إطلاقًا، وقد جاءت في القرآن الكريمِ في سَبْعَةِ مواضِعَ، ما فيها موضِعٌ واحدٌ اختَلَفَ فيه التَّعْبيرُ عن هذا؛ إلا: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] وما أشبه ذلك فهو عند أهل السُّنَّة والجماعَةِ بمعنى (علا على العَرْش واسْتَقَرَّ عليه)، ورُوِيَ عنهم (ارْتَفَع) ورُوِيَ عنهم (صَعِدَ وارْتَفَع) و(صَعِدَ) و(علا) معناهما متقارِبٌ؛ ولهذا اخْتَرْنا أن نقول بمعنى (علا واسْتَقَرَّ)، أما (ارتفع) و(صَعِدَ) فهو مقابِلٌ لـ(علا).

وهذا الاستواءُ استواءٌ بمعنى العُلُوِّ والاسْتِقْرار، وقد يَرِدُ عليكم سؤالٌ، ويُقال: أَلَسْتُم تقولون إنَّ عُلُوَّ الله عَزَّوَجَلَّ بذاتِهِ صِفَةٌ ذاتِيَّةٌ أزلِيَّةٌ أَبَدِيَّةٌ؟

نَقُول: بلى، عُلُوُّ الله بذاته صفةٌ أزليَّة أبديَّةٌ لا تنفكُّ عن الله، خلَق ثم اسْتَوَى، فمعنى ذلك أنه حين الخَلْقِ ليس مُسْتَوِيًا على العَرْش، وهذا حقٌّ؛ لأن الاستواءَ على العَرْشِ أخَصُّ من مُطْلَقِ العُلُوِّ؛ فالاستواءُ على العَرْشِ والعُلُوُّ على العَرْشِ خاصَّةً هذا معنًى خاصٌّ غيرُ معنى (مُطْلَقِ العُلُوِّ) فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عالٍ دائمًا لكنْ كَوْنُه على العرش بنفسه هذا حادِثٌ قطعًا؛ لأنَّ العَرْشَ مخلوقٌ. وقد بيَّنَ الله أنَّه استوى على العَرْشِ بعد خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، ولا نعلم عمَّا قبل ذلك، والله أعلم.

ولكنَّ السؤالَ الآن: إذا قُلْتُم إنَّ معنى (استوى على العرش) أي: علا واسْتَقَرَّ عليه، فإنه يَرِدُ علينا إشكالٌ: بأنَّ عُلُوَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَصْفٌ ذاتيٌّ أزليٌّ أبديٌّ، فكيف تقولون إنَّ معنى صَعِدَ علا عليه، وأنتم تقولون إنَّ العُلُوَّ صفةٌ ذاتيَّةٌ أزَلِيَّة أبديَّة، وفي العُلُوِّ عُلُوَّانِ: مُطْلَقُ عُلُوٍّ، وعُلُوٌّ خاصٌّ بالعكس؛ فالأوَّلُ الذي هو مُطْلَق العُلُوِّ صفةٌ ذاتيَّة أزليَّة أبديَّة، فالله لم يَزَلْ ولا يزالُ عاليًا بذاتِهِ على جميع الخلق، أما الاستواءُ على العَرْشِ فهو صفةٌ فعليَّة خاصَّةٌ في العرش.

وأضْرِبُ مثلًا يُقَرِّبُ المعنى: فالإنسانُ إذا كان على السَّطح فهو عالٍ على مَنْ تحت السطحِ، فإذا وُضِعَ له كرسِيٌّ في السَّطح وجلس عليه صار عُلُوُّه على هذا الكرسيِّ علوًّا خاصًّا مع ثبوتِ العُلُوِّ الأوَّلِ الذي هو مُطْلَق العُلُوِّ، لكنَّ هذا عُلُوٌّ خاصٌّ: على هذا الكرسيِّ.

فتبيَّنَ أنَّ هناك فرقًا بين العُلُوِّ بالمعنى العامِّ؛ فإنه وَصْفٌ ذاتيٌّ أزليٌّ أبديٌّ، وبين استوائه على العَرْش الذي هو علوٌّ خاصٌّ على ذلك العَرْش؛ ولهذا بعضُ السَّلَفِ ورد عنه تَفْسيرُه: (بأنَّه جلس عليه) وهذا قريبٌ من تفسيره بالاستقرار، فهذا علوٌّ خاصٌّ، ففرَّقَ بين العُلُوِّ الخاصِّ، وبين العُلُوِّ بالمعنى العامِّ.

ونتتقل من هذا المعنى إلى أن نقـولَ: هل الاستواءُ على العرش من الصِّفاتِ الفِعْلِيَّةِ أم من الصِّفاتِ الذَّاتِيَّةِ؟

الجوابُ: الاستواءُ من الصِّفاتِ الفِعْلِيَّة، وأنَّ كل شيء يتعلَّقُ بالمشيئة إن شاء الله فَعَلَ وإنْ شَاء لم يَفْعل، فهو من الصِّفاتِ الفِعْلِيَّة فضلًا عن الاسْتِوَاء على العَرْشِ، فإنَّه من الصِّفات الفعليَّة.

وأهلُ السُّنَّة يقولون: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي علا عليه واستقرَّ، وكيف كان ذلك العُلُوُّ والاستقرارُ؟

لا ندري؛ ولهـذا قال الإمامُ مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما سُئِلَ؛ قيـل له: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيف استوى؟ فأَطْرَقَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِرَأْسِهِ حتى علاه الرُّحَضَاءُ -العَرَقُ- من شِدَّة وقْعِ هذا السُّؤالِ على قلبه، ثم رَفَعَ رأسه، وقال: «الاسْتِواءُ غَيْرُ مجْهُولٍ، والكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، والإيمانُ به واجِبٌ، والسُّؤالُ عنه بِدْعَةٌ»[1]؛ ويُنْقَلُ عن مالكٍ على غيرِ هذا اللَّفْظِ أنه قال: «الاستواءُ مَعْلومٌ، والكَيْفُ مَجْهولٌ، والإيمانُ عنه واجِبٌ، والسُّؤالُ عنه بدعة»[2] لكن الذي صَحَّ عنه بالسَّنَدِ هو اللَّفْظُ الأَوَّلُ، وهو: «الاستواءُ غيرُ مجهولٍ، والكَيْفُ غير مَعْقولٍ، والإيمانُ به واجبٌ، والسُّـؤالُ عنه بِدْعَةٌ» ثم قال: «ما أُراكَ إلا مُبْـتَدِعًا!» مع أنـه يُحْتَمَلُ أنه سألَ سُؤالَ اسْتِفْسارٍ ولم يسألْهُ إفحامًا، ولهذا قال: وما أُراك أوْ ما أظُنُّك إلَّا مُبْتَدِعًا، ثم أمر به فأُخْرِجَ من الحَلْقَة لئلَّا يُشَوِّشَ على النَّاس.

---

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة رقم (٦٦٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (٨٦٧)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والدارمي في الرد على الجهمية رقم (١٠٤).

(٢) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص:٣٨)، والملل والنحل (١/ ٩٣)، والعرش للذهبي (١/ ١١٧-١١٨).

الحاصل: أننا نقولُ: الاستواءُ غير مجهولٌ، أو أنه مَعْلومٌ معنًى في اللُّغَة العربيَّة والقرآنُ نزل باللُّغة العربيَّة؛ فمعناه لغةً: علا واستقرَّ.

وقولـه: «الكيفُ غير معقولٍ» يعني: ما نَعْقِـلُه نحن، وهذا أَبْلَغُ من كَلِـمَة مجهول، يعني لا يُمكن أن يُدْرِكَه العَقْلُ أو يُحيطَ به، فالله أعظمُ من أن تُدْرِكَ العقولُ كُنْهَ ذاتِهِ وصفاتِه.

ثم إذا انتفى عنه الدليل العقليُّ أثبت الدليلُ السَّمْعِي، ولم يَرِدِ السَّمْعُ بذكْرِ الكيفيَّةِ، فإذا انتـفى عنه الدَّليـلانِ: العقليُّ والسَّمْعِيُّ، فإنَّه يجـب التَّوَقُّفُ؛ ولهذا الصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم التزَموا جانِبَ التَّوَقُّفِ، مع أنَّهم أَحْرَصُ منَّا على القَوْل وعلى العِلْم؛ فهل سألوا الرَّسولَ ﷺ فقالوا: كيف استوى أو لا؟

لا؛ ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والسُّؤالُ عنه بِدْعَةٌ»: «السؤال عنه» يعني عن الكيفيَّة بدعة، فما كان الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم يسألون عن هذا، ولا يُمكِنُ الوصولُ إليه، فإذن السُّؤالُ عنه تكلُّفٌ من حيث لا يُمْكِنُ الوصولُ إليه، وبدعَةٌ من حيث لم يَسْأَلْ عنه الصَّحابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.

وقوله: «والإيمانُ به واجبٌ»: «الإيمان به» بالاستواءِ على العَرْش، «واجِبٌ» لأنَّ الله أخبر به عن نَفْسِه، وما أَخْبَرَ الله به عن نَفْسِه وَجَبَ علينا قَبُولُه، وألَّا نقيسَ ذلك بعقولنا.

فإذن -الحمد لله- الاستواءُ واضِحٌ؛ فالاسْتِواءُ معناه: العُلُوُّ والاسْتِقْرار وهو معلومُ المعنى، لكنَّ الكيفيَّةَ مجهولةٌ غَيْر مَعْقولة، يعني لا يُدْرِكُها العَقْلُ، ولا يستدلُّ عليها، والسَّمْعُ لم يَدُلَّ عليها؛ فوجب الوقوفُ؛ ولهذا قال الإمامُ مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «الكيفُ مجهولٌ، والإيمانُ به واجبٌ، والسُّؤالُ عنه بِدْعةٌ».

وأهل البِدَعِ يَنْفونَ هذا الشَّيءَ، ويقولون: مُحالٌ أن يكون استوى على العَرْشِ؛ أي: علا عليه واستقرَّ، ولكنَّ معناه: استولى على العَرْشِ وقَهَرَ ومَلَكَ، وإنَّ الاستواءَ فيه معنى ذلك؛ وقالوا: وَجَدْناه في قول القائِلِ:

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلى العِرَاقِ ... مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ أَوْ دَمٍ مُهْرَاقِ

(استوى على العِراقِ) يعني: استولى عليها، فنَرُدُّ كلامَ الله إلى هذا البَيْتِ الذي أُنْشِدَ في عَهْدِ بِشْرِ بْنِ مَروانَ حين استولى على العراقِ!

وهذا البيتُ يُقال: إنَّ قائِلَه مجهولٌ لا يُعْلَم، وسبحانَ الله أن نَحْمِلَ القرآنَ الكريم على بيتٍ من الشِّعْر قائِلُه مجهولٌ! والرِّوايَةُ إذا كان فيها راوٍ مجهولٌ، فهي مَرْدودة حتى يَتبَيَّن.

ثم نَقُول: على فَرْضِ أنَّ القائِلَ معلومٌ، وأنه من أَقْحاحِ العَرَبِ الذين لم تَتَلَوَّثْ ألسنتهم بِعُجْمَة؛ فإنَّ استوى على العراقِ يَصِحُّ أن نقولَ بمعنى علا على العراقِ؛ أي عُلُوًّا معنويًّا وليس حِسِّيًّا، ويَمْنَعُ أن يكون المرادُ به العُلُوَّ الحِسِّيَّ أنَّ العِراقَ لا يمكن أن يَجْلِسَ عليه بِشْرٌ؛ فيكون معناها هنا أمرًا عقليًّا، ويكون الاستواءُ هنا استواءً معنويًّا؛ بمعنى أنه علا عليه عُلُوًّا مَعْنَويًّا؛ وإذا فَسَّرْناها بمعنى علا عُلُوًّا معنويًّا كان أبلغَ من تفسيره بالاستواء؛ لأن مجرَّدَ الاستيلاءِ قد لا يَحْصُل به العُلُوُّ؛ قد يكون مُسْتَوِيًا لكنه كالعصا، فإذ قلنا استوى بمعنى علا علوًّا معنويًّا صار أبلغَ في التملُّك والقَهْر، فتبيَّن أنَّه لا حُجَّة في هذا البيت على كلِّ تقديرٍ.

ثم إنَّه مخالِفٌ لظاهِرِ القرآن، ومخالِفٌ لِما أَجْمَعَ عليه السَّلَفُ والأَئِمَّةُ من أنَّ الاستواءَ بمعنى العُلُوِّ والاسْتِقْرار، ويكون هذا باطلًا.

إِذَن: الذي نؤمِنُ به أنَّ الله تعالى استوى على عَرْشِه استواءً يليقُ به؛ بمعنى علا واستقَرَّ؛ وعلى التَّرتيب فمِن بعدِ خلْق السَّموات استوى، لكن قبل أن يَخْلُق السَّموات مسكوتٌ عنه، فهو حين الخلق غير مستوٍ، وبعد الخلق مُسْتَوٍ. وأمَّا قبله فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو في اللُّغَةِ سَريرُ المَلِكِ] استوى على العَرْش؛ إذن هو سريرٌ خاصٌّ يليق بالمَلِك وبِمُلْكِه؛ قال الله تعالى عن مَلِكَة سبأٍ كما أخبر عنها الهُدْهُدُ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣] وقال تعالى في قِصَّة يوسُفَ ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف:١٠٠] يعني السرير الخاص بالمَلِك، ولا بُدَّ أن يكون سريرًا مُفخَّمًا حَسَبَ مُلْكِه، هذا هو السَّريرُ، فيكون عَرْشُ الرحمنِ عَزَّوَجَلَّ أعظَمَ شيء؛ لأنه عَرْشٌ لأَعظمِ الأشياءِ وهُو الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا جاء في الحديث: «**أنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الكُرْسِيِّ كَحَلْقَةٍ أُلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ**»[1] أي: حلقة الدِّرْعِ، نسبة صغيرة؛ أُلْقِيَت في فَلاةٍ من الأرض، فلو أُلْقِيَتْ حلْقَةٌ في فلاةِ الأرضِ هل يَصِحُّ أن تُنْسَبَ إلى الفَلاة كم مُدَّتُها؟ ولا واحد من المليون، ليست بشيءٍ، ويمكن ألَّا تَقْدِرَ أن تُشاهِدَها «**وإنَّ فَضْلَ العَرْشِ على الكُرْسيِّ كفَضْلِ الفَلَاةِ على هذه الحَلْقَةِ**».

إِذَن: الكرسيُّ بالنِّسْبة للعرش كحَلْقَة أُلْقِيَت في فلاةٍ من الأرضِ، ومن هذا تَعْرِف مقدارَ عَظَمَةِ الخالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كيف خلق هذه الأشياءَ العظيمة.

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [استواءً يليقُ به] نريد أن نناقِشَ المُفَسِّر عن هذه الكلمة،

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٣٦١)، وابن بطة في الإبانة (٧/ ١٨١)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

هل هذا الكلام يدلُّ على أنه على مَذْهَبِ السَّلَفِ في صِفَة الاستواءِ، أو على مذهب الخَلَفِ؟ لأن الخَلَف يقولون: الاستواءُ الذي يليقُ به: الاستيلاءُ، هذا الذي يليقُ عندهم! والسَّلَفُ يقولون: الاستواءُ الذي يليق به: العُلُوُّ على الوَجْهِ الذي يليق بالله.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾: ﴿مَا لَكُم﴾: ﴿مَا﴾ نافِيَة، والخطابُ في قوله تعالى: ﴿لَكُم﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يا كُفَّارَ مكَّةَ] والصوابُ العُمُوم؛ يعني: ما لكم أيُّها المخاطَبُون، ويَشْمَلُ كفَّارَ مكَّة وغَيْرَهم.

وقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ الدُّونُ بمعنى سِوَى؛ يعني: ما لكم مِنْ سِوَاه؛ ولهذا قال المُفَسِّر [مِنْ غَيْرِه].

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مِن وَلِيٍّ﴾ اسْمُ (ما) بِزيادَةِ مِنْ] وزيادَتُها هنا مِن أجْلِ التَّوْكيد والتَّنْصيصِ على العموم، ولكن قوله (اسْمُ ما) خطأٌ؛ قال ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

.... مَعَ بَقَا النَّفْـيِ وَتَرْتيـبٍ زُكِـنْ[(١)]

فلا بدَّ في (ما) أن تكون مُرَتَّبَة؛ يعني: الاسْمُ قبل الخبر، فإن لم تكن كذلك فإنَّها لا تَعْمَلُ؛ لأنها ما تعملُ إلا على لُغَةِ الحِجازِيِّينَ بالشُّروطِ التي ذَكَر ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، فيكون قولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [اسمُ (ما)] قد يكون سَقْطَةَ قَلَمٍ أو سهوًا، فإنَّ (ما) هنا غيرُ عامِلَةٍ، وهنا (ما) نافية فقط، وسبب بُطلانِ عَمَلِها عَدَمُ التَّرْتيب.

وخبر المبتدأ إذن: قَوْلُه: (لكم): ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ يقول: [أي ناصِرٌ] ولا شفيعٌ، فَسَّر الوليَّ هنا بالنَّاصِر، وقد اعترضوا عليه؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول

---

(١) الألفية (ص: ٢٠).

في آية أخرى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى:٣١] والعَطْفُ يقتضي المُغايَرَة، وأنَّ النَّصيرَ غيرُ الوليِّ؛ ولهذا الأَوْلى أن يُفسَّر الوَلِيَّ لمن يتولَّى أَمْر الإنسان؛ يتولى أَمْرَه بِجَلْبِ الخَيْرِ له ودَفْع الضَّرَر عنه، ثم إن قُرِنَتْ بالنَّصيرِ صارت خاصَّة بجلب الخيرِ، والنَّصير بدَفْع الشَّرِّ؛ فالمراد: مِنْ وَلِيٍّ؛ أي: من مُتَولٍّ لأَمْره بِجَلْب الخير له، ودَفْعِ الشَّرِّ عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: شافِع يَشْفَعُ لكم؛ ولهذا قال: [﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ يَدْفَعُ عذابه عنكم] هذا أيضًا فيه نظر؛ لأنَّ الشَّفيع ليس يَشْفَع، ولكنه يُشْفَع ويُطْلَب، الدَّافِعُ هو النَّاصر والوليُّ، أما الشَّفيع فإنَّه ليس يَدْفَعُ ولكنَّه يتوسَّط؛ ولهذا قالوا في تعريف الشَّفاعَةِ: هي التَّوسُّط للغير بِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ أو دَفْعِ مَضَرَّة، فيثبُتُ للغَيْر؛ لأنَّ الشَّفيع يأتي شافعًا للمَشْفوع له، فبعد أن كان فردًا صارا اثنينِ.

فالصَّوابُ أنَّ المراد بالشَّفيعِ؛ أيْ: شفيع يشفَعُ لكم عند الله، فنحن ليس لنا أحدٌ يتولَّانا من دون الله، وليس لنا أحدٌ يَشْفَعُ لنا عند الله عَزَّوَجَلَّ ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾؛ ولهذا لا تكون الشَّفاعة إلا بإذن الله، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ هذا، فتؤْمنون] ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تقدَّمَ لنا مِرارًا وتكرارًا أنَّ مِثْل هذه الجُمْلَة يرى النحويُّون في إعرابها وَجْهَينِ:

الوَجْه الأوَّل: أن تكون الهَمْزَةُ داخِلَةً على شيء محذوفٍ مناسِبٍ للمَقامِ، والفاء عاطِفة على ذلك المحْذوفِ.

الوَجْه الثاني: أن تكون الهَمْزَة داخِلَةً على الجملة التي بعد العاطِفِ، والعاطِفُ عاطِفٌ على ما سبق.

وَقُلْنَا: إن هذا الوَجْه أَسْهَلُ؛ لأن الأوَّل يحتاجُ إلى تقديرٍ، وقد يكون المقدَّرُ صَعْبًا؛ إذ قد يُشْكِلُ على الإنسان ملاءَمَتُه للسِّياق، فإذا قلتَ: الهَمْزَة للاستفهامِ وَهِيَ مقدَّمة على حرف العطف، والفاءُ حرف عطف، والمعطوف عليه ما سبق، والتَّقدير بدُون تَقْديم وتَأْخير: فَأَلَا تَتَذَكَّرون.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [هذا، فتؤمنون] [هذا] أفادنا المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله [هذا] أنَّ المرادَ بالتذكُّر البَصَرُ به والعِلْمُ به؛ ويُحْتَمَلُ أن يكون المرادُ بالتَّذَكُّرِ الاتِّعاظَ، وعلى هذا فيكون لازمًا لا مُتَعَدِّيًا؛ يعني: أفلا تَتَّعِظونَ بعد أن عَرَفْتُم مخلوقاتِه العظيمةَ واستواءَه على عَرْشِه، وأنه ليس لكم من دونه من وليٍّ ولا شَفيعٍ؛ أفلا تَتَّعِظون فتُؤْمِنون؟!

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الذي خلق السَّمواتِ هو الله لا شريك له؛ تُؤْخَذُ من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ من كون المبتدأِ والخَبَر مَعْرِفتينِ، وإذا كان المبتدأُ والخبرُ مَعْرِفتَين فإنَّهما يُفيدانِ الحصْرَ: الله الذي خلق لا غَيْرُه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ ما تضَمَّنَتْه هذه الجُمْلَةُ من العِلْمِ والقُدْرَة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي لا خَلْقَ بدون عِلْمٍ، ولا خَلْقَ بدون قُدْرَة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيانُ عَظَمَةِ قُدْرَةِ الله؛ لأنَّ خَلْقَ هذه السَّمواتِ والأَرْضِ العظيمة يدُلُّ على عظمة الخالِقِ؛ فكما أنَّنا لو رأينا قَصْرًا مَشِيدًا وبِناءً مُحْكَمًا استَدْلَلْنا به على عَظَمَة الباني.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ بين السَّمَواتِ والأَرْضِ من الآياتِ شيئًا كبيرًا، حيثُ جَعَلَه

قسيمًا لخلق السَّمواتِ والأرض ومقابلًا له.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ خَلْقَ السَّمواتِ والأرض تَمَّ في سِتَّة أيام، مفصَّلَة في سورة فُصِّلَتْ: أربعة للأَرْضِ، ويومان في السَّماء.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات عُلُوِّ الله؛ لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ والعَرْشُ أعلى المخلوقاتِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ استواءِ الله على عَرْشِه، وهو عُلُوُّه واسْتِقْرارُه عليه، بدون تَكْيِيفٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثباتُ قيامِ الأفعالِ الاخْتِياريَّة بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ لأَنَّه من الأفعالِ التي يَفْعَلُها بِمَشيئَتِه، وهي التي يُعَبَّرُ عنها أحيانًا بالصِّفاتِ الفِعْلِيَّة.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثباتُ عظمة الله وسُلْطانِه؛ تُؤْخَذُ من قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؛ لأن العرش سرير المَلِك، وقُلْنا إنَّ العَرْشَ يَعْظُمُ بعِظَمِ مَلِكِه.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثبـات العَرْش والعرش سرير المَلِك، وهل هو الكرسي أو غيره؟

نَقُول: هو عند أهل السُّنَّةِ غيرُ الكرسي.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنه ليس للخَلْقِ وليٌّ مِنْ دونِ الله؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾.

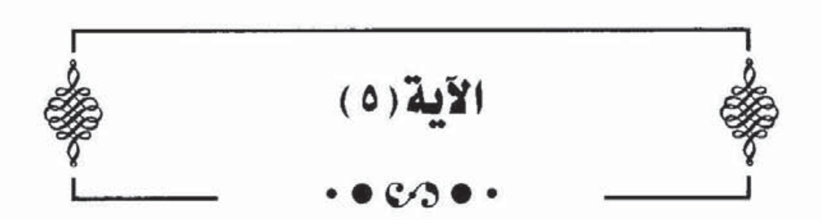
الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنه لا شفيع لهم من دون الله.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: إبطال تعلُّق الْمُشْركينَ بآلِهَتِهِم؛ وَجْهُه: أنَّهم إن أرادوا أن تكونَ وليًّا لهم مُغيثًا مُنْقِذًا من الشِّدَّة، فلن يكون ذلك، وإن أرادوا أن يكونوا شفعاءَ، فلن يكون ذلك؛ يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣] وأحيانًا يطلبونَ منهم جَلْبَ الخيرِ ودَفْعَ الضَّرَرِ، وكلُّ هذا لا متعلَّقَ لهم به فهو باطِلٌ؛ إذ لا يكون ذلك إلا بإذن الله؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ ففي الآية -كما قلتُ-: تَعَلَّقَ المشركونَ بآلِهَتِهِم سواء جَعَلوها أولياءَ أو جعلوها شُفَعاءَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: تَوْبيخُ من لا يتذكَّرُ بعد هذا البيانِ؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

وهذه الفائِدَة تترتَّبُ عليها فائِدَةٌ أخرى، وهي وجوبُ التَّذَكُّرِ بآياتِ الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ الإنسانَ يتذكَّرُ بآياتِ الله، ولا يكون كأنَّه يَمُرُّ عليها كأنَّها ألفاظٌ عابِرَةٌ.

• • ۞ • •



الآية (٥)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة:٥].

• • • •

قولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ مُدَّةَ الدُّنيا ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ﴾ يَرْجِعُ الأَمْرُ والتَّدبيرُ ﴿إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ في الدُّنيا، وفي سورة (سأل): ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤] وهو يومُ القيامَةِ لشِدَّة أَهْوَالِهِ بالنِّسْبَة إلى الكُفَّار].

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ المرادُ بالسَّماءِ هنا: تلك الأجرامُ المعهودَةُ المعروفة، يدبِّرُها من السَّماء إلى الأرض ثم يَعرُجُ إليه؛ يعني: من السَّماءِ الدُّنيا إلى الأَرْضِ، ثم يَعْرُجُ إليه؛ أي: إلى الله تعالى، ولا يَلْزَمُ أن يكون الله في السَّماءِ الدُّنيا.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ﴾ يعني: يَرْجِعُ إليه؛ فقوله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ الذي يَعرُج إليه هو: ما يَترَتَّبُ على ذلك الأَمرِ؛ أَمَّا الأَمْرُ فهو نازِلٌ؛ مِثْل لو أَمر عَزَّوَجَلَّ بأن يقومَ هذا الرَّجُل بعبادَةِ الله، تكون عبادة، ثم يَرْجِعُ إليه ثوابُ العمل أو العقاب عليه حَسَب ما يَفْعَلُه هذا العبدُ، كذلك أيضًا ينزل الأَمْرُ من السَّماءِ بنُزُولِ المَطَرِ، ثم يَرْجِعُ إليه: حصل هذا الشَّيءُ بأنَّه نزل فأحيا به الأَرْضَ بعد موتها وما أشبه ذلك، فالأَمْرُ نازِلٌ وصاعِدٌ؛ من السَّماء إلى الأَرْض.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الله، يَعْرُج بمعنى يَصْعَد؛ لكنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فسَّر الآية بأنَّه يدبِّره من السَّماء إلى الأرض في الدُّنيا، ثم يَعْرُجُ إليه في الآخِرَة، وجعل العُرُوج بمعنى الرُّجوع، ولا شَكَّ أن هذا تحريفٌ؛ لأنَّ العُرُوجَ غيرُ الرُّجُوع، فمعنى العُرُوج الصُّعودُ: يَصْعَد إليه، وليس بمعنى أنه يَرْجِعُ إليه في يوم القيامة حتى يُثِيبَ عليه أو يُعاقِبَ.

فالمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ جعل: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ في كل مُدَّةِ الدُّنيا، تدبيرٌ: أَمْرٌ ينزل من السَّماء إلى الأرض.

أمَّا العُرُوج فيكون يومَ القيامَةِ، وفسَّرَه بالرُّجُوع، على رأي المُفَسِّر يكون في يومٍ كان مقدارُهُ ألفَ سَنَةٍ ممَّا تَعُدُّون؛ يخالف ما ذكره الله تعالى في سورة سأل؛ لأنَّه في سورة سأل قال: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤].

أجاب المُفَسِّر بما يقتضي أنه يختلف باختلافِ التَّقْديرِ، فيكون على قومٍ بمقدارِ خمسينَ ألفَ سَنَةٍ، وعلى قوم بمقدار ألفِ سَنَةٍ، وعلى آخرينَ بمقدارِ أداءِ الفريضَةِ كما قال: [وَأَمَّا المُؤْمِن فَيَكُونُ أَخفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا كَمَا جَاءَ في الحديثِ(١)].

إِذَن: خلاصة رأي المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: أنَّ تدبيرَ الأَمْرِ من السَّماء إلى الأرض بالدُّنيا من أوَّلِها إلى آخِرِها، وأنَّ العُرُوجَ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بهذا الأَمْرِ في الآخرة، وفسَّرَ العُرُوجَ بالرُّجُوعِ، فرارًا من إثباتِ العُلُوِّ الذاتيِّ.

ويبقى على المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ **إشْكالٌ**: وهو أنَّنا إذا جعلنا الرُّجوعَ في يوم القيامة،

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٧٥)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ففي الآيَةِ هنا مقدارُهُ ألْفُ سَنَةٍ، وفي سورة المعارِجِ مقدارُهُ خمسونَ ألْفَ سَنَةٍ.

والجوابُ عند المُفَسِّر أن يُقال: إنَّ اخْتلافَ التَّقديرِ هنا باعتبارِ أحوالِ النَّاسِ؛ فمنهم من يُخَفَّفُ عنه حتى يكون كألْفِ سَنَةٍ، بل قد يكون كأداءِ صلاةٍ مكتوبةٍ، ومنهم من يُثقَّلُ حتى يكونَ بمقدارِ خَمْسينَ ألفَ سنةٍ.

أما على القولِ الصَّحيحِ الذي مشى عليه ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ[1] وأكَّدَهُ في التَّفْسيرِ؛ فيقولون: إنَّ هذا كلَّه في الدُّنيا: التَّدْبير والعُرُوج، وأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يدبِّرُ الأَمْرَ من السَّماء إلى الأرض، ثم يَعْرُجُ إليه آثارُ هذا التَّدْبيرِ؛ يعني في الدُّنْيا، ويقولون معنى ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: بأنَّ مسافَةَ ما بين السَّماء إلى الأَرْضِ خَمْسُ مئة سَنَةٍ، هذا نزولٌ، ومسافتها عُرُوجًا خَمْسُ مِئَةِ سَنَةٍ، فيكون الجميعُ ألْفًا، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ باعتبارِ النُّزُولِ وباعتبارِ العُرُوجِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لماذا خَصَّ السَّماء الدُّنيا؟

فالجوابُ: لأنه عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ لأنَّه لو كان الأَمْر في السَّماء السَّابِعَة مثلًا؛ فليست هذه المدَّة إذا جعلنا بين كلِّ سماء إلى سماء خَمْسَ مئة عامٍ، وكِثَفَ كُلِّ سماءٍ خَمْسَ مئةِ عام، كلُّ عامٍ يكون أكْثَرَ من هذا؛ فإن مَسافةَ ما بَيْن السَّمواتِ كما جاءَ في الحديثِ: أنَّ كِثَفَ كُلِّ سماءٍ خَمْسُ مئةِ عامٍ، وما بين السَّماءِ والأَرْضِ: خمسُ مئةِ عامٍ[2].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ﴾: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ هل لا بدَّ أن يكون في يوم كاملٍ

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٢١).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحديد، رقم (٣٢٩٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

أو في للظَّرْفِيَّة ولا تقتضي الاستيعابَ؟

الجوابُ: أنَّ (في) للظَّرْفِيَّة ولا تَسْتَلْزِمُ الاستيعابَ؛ يعني: ليس بلازِمٍ أنَّ الأَمْرَ يَنْزِلُ مثلًا عند صلاة الفجر ولا يَعْرُج إلا في الغروب؛ فقد يَنْزِلُ ويَعْرُج في لحظَةٍ حسب ما أراد الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ (في) لا تقتضي الاستيعابَ، فإذا قُلْتَ: (زُرْتُكَ في يَوْمِ الأَحَدِ) فلا يقتضي أن تكون الزِّيارَةُ مُسْتَوْعِبَةً لجميع اليوم، ولكن في وَقْتٍ من هذا اليوم، فإذن ﴿فِي يَوْمٍ﴾ أي: في وقْتٍ من هذا اليَوْمِ، وهذا اليَوْمُ كان مِقْدارُهُ أَلْفَ سنة ممَّا تعدُّون.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هذه الآية دليلٌ على كمالِ سُلْطان الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث جعل تدبيرَ الأمورِ إليه، ﴿يُدَبِّرُ﴾ هو؛ ففيه كمال السُّلْطان، وأنَّ الكمال له وَحْدَه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: رَدٌّ على القَدَرِيَّة، الذين يدَّعُون أنَّ أَمْرَ الإنسان مستَقِلٌّ به؛ لأننا نقول: إنَّ فِعْلَ الإنسان من الأمور، والذي يُدَبِّرُه هو الله عَزَّوَجَلَّ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وفيه دليلٌ لقَوْلِ الجَبْرِيَّةِ!

فالجوابُ أن نقول: لكنْ هناك آياتٌ تدلُّ على أنَّ الإنسانَ فاعلٌ بالاختيارِ؛ لقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩] وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢] وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ [المائدة:٢] وما أشبه ذلك؛ فكلُّها تدلُّ على أن للإنسان إرادةً واختيارًا.

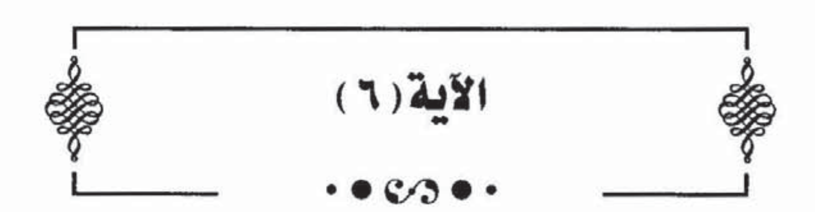
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات عُلُوِّ الله عَزَّوَجَلَّ؛ من قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ

إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ فقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا النُّزُولُ، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ هذا الصُّعودُ، ولا نُزُولَ إلا من عالٍ، ولا صعود إلا إلى عالٍ، فيُستفادُ عُلُوُّ الله تعالى من الجملتين جميعًا؛ يعني كل واحدة على انفراد.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ أَمْرَ الله عَزَّوَجَلَّ شامِلٌ للسَّماء والأرض؛ لأنَّه إذا كان يُدَبِّرُ الأَمْرَ من السَّماء إلى الأرض، فالسَّماءُ من باب أولى؛ فالسَّماء أَقْرَبُ إليه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هذا التَّدْبير الذي يكون بلحظة: في يومٍ مقدارُه أَلْفُ سَنَةٍ: نزولٌ وعروجٌ يكون هذا بلحْظَةٍ؛ لأنَّ الله يقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ وهذا يدلُّ على كمال نفوذِ إرادَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنَّه لا يَمْنَعُها بُعْدٌ.

•●۞●•



الآية (٦)

• ● ◦ ● •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [السجدة:٦].

• ● ◦ ● •

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذَٰلِكَ﴾ الخالِقُ المدَبِّرُ] وأتى باسْمِ الإشارَةِ الدَّالَة على البُعْد؛ لِعِظَمِ شأنِه وعُلُوِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وقوله [الخالِقُ المدَبِّرُ] الذي تقدم من الصِّفاتِ: الخالِق، المستوي على عَرْشِه، المدبِّر لخَلْقِه.

والاستواءُ على عرشه من أَهَمِّ ما يكونُ في هذا المقامِ؛ لأَنَّه مع عُلُوِّه لا يخفى عليه ما غاب ولا ما شُوهِدَ، فكان ينبغي أن يَذْكُرَه المُفَسِّر مع هذا.

فهو الخالِقُ، وهو المدبِّر، وهو المُسْتَوِي على عَرْشِه، ومع عُلُوِّه واسْتِوَائه على عَرْشِه لا يخفى عليه شيءٌ، ومع خَلْقِه أيضًا وتَدْبيرِهِ لا يخفى عليه شيءٌ، ولهذا الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلَمُ منك بنفسِكَ؛ لأَنَّه هو الخالِقُ، فهو الذي خلق جِسْمَك، وهو الذي يُنمِّيه، وإذا نَما الجِسْمُ بمقدارِ ذرَّةٍ، فإنَّ الله تعالى قد خلق هذا النُّمُوَّ، وأنت لا تَشْعُرُ بما ينمو في جِسْمِك بمقدارِ ذرَّةٍ.

إِذَن: فالله أَعْلَمُ منك بنَفْسِك؛ لأَنَّه الخالِقُ وهو المدَبِّرُ، وهو المستوي على عَرْشِه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ أي: ما غاب عن الخَلْقِ وما حَضَرَ] الغَيْبُ: ما غاب عن الخَلْق، وهو نوعان: غَيْبٌ مُطْلَقٌ لا يَعْلَمُه إلا الله، وغَيْبٌ نِسْبِيٌّ؛

بحيث يكون غائبًا عن شَخْصٍ غيرَ غائبٍ عن آخَرَ، والمراد كلاهما؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ ما غاب عن الخَلْقِ غَيْبًا مُطْلقًا بحيث لا يَعْلَمُه أحدٌ، وما غاب عنهما غيبًا نسبيًّا؛ فمثلًا الآن الذي في الشَّارِعِ غائِبٌ عنَّا لا نعلمه، لكنَّ الذين هناك يَعْلَمُونه، وما هنا نحن نَعْلَمُه، وهم لا يَعْلَمُونه؛ فهذا الغَيْبُ النِّسْبيُّ؛ أما عِلْمُ المستَقْبَلِ، وما يكون مِمَّا لم يُخْبِرْنا الله به، فإنه غَيْبٌ مُطْلَقٌ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الشَّهادة يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنَّها الحُضُورُ؛ لأنَّ (شَهِدَ) بمعنى حضر وبمعنى أخبر؛ فلها معانٍ، فهنا المرادُ بالشَّهادةِ الحاضِرُ، فهو يَعْلَمُ الغائِبَ والحاضِرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المَنيعُ في مُلْكِهِ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأَهْلِ طاعَتِهِ] ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ فسَّره المُفَسِّر بأنه [المنيعُ في مُلْكِهِ] ودائمًا يمر علينا في تفسيرِ المُفَسِّر نفسه فيقول: العزيزُ بمعنى الغالِب، وقد سبق لنا: أنَّ العزيزَ هو منِ اتَّصَفَ بالعِزَّة، وأنَّ العِزَّة ثلاثةُ معانٍ: عِزَّةُ القَدْرِ، وعِزَّةُ القَهْرِ، وعِزَّةُ الامتناعِ.

فإذا قُلْتَ: هذا الشَّيءُ عزيزٌ؛ بمعنى أنه ذو قَدْرٍ، كما يقول قائِلٌ لأخيه: أنت عزيزٌ عندي؛ يعني: لك قَدْرٌ عندي ومَنْزِلَةٌ، وعزيزُ القَهْرِ؛ كما يُقال: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:٣] يعني: تَقْهَرُ به الأَعْداءَ. والثَّالث: عِزَّة الامْتِناعِ، وهذا كما يُقال في الأشياء النَّادِرَة: هذا عزيزٌ، وكما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم:٢٠] أي: بمُمْتَنِعٍ.

فمعنى الامتناع باعتبارِ كوْنِهِ صفةً لله: أنه يَمْتَنِعُ أن يناله نَقْصٌ في ذاتِهِ أو صِفاتِهِ؛ ولهذا يقول المُفَسِّر هنا [المنيعُ في مُلْكِهِ] فلا يَلْحَقُه نقصٌ لا في ذاتِهِ ولا في صفاتِهِ.

وأمَّا قوله [﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأهْلِ طاعَتِهِ] فكأنه أخذ هذا التَّخصيصَ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣] والصَّوابُ: أنَّ الرَّحيمَ هو مَن رَحِمَ غيرَه، ويَشْمَل المؤمنينَ وغيرَ المُؤمنينَ، ولكنَّه إذا قيل: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ فالمراد بالرَّحيمِ هنا الرَّحمةُ الخاصَّةُ، أمَّا إذا أُطْلِقَ فهو رحيمٌ بالخَلْقِ كُلِّهِمْ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل:٥٣] فهؤلاء الكُفَّارُ هل الله عَزَّوَجَلَّ رَحِمَهُم؟

الجوابُ: نعم، بالمعنى العامِّ رَحِمَهُم؛ فهو تعالى يُنْزِلُ عليهم المَطَرَ ويُنْبِتُ لهم النَّبات ويُعْطيهم الرِّزْقَ والصِّحَّة، وغير ذلك، لكن هذه رَحْمَةٌ عامَّة.

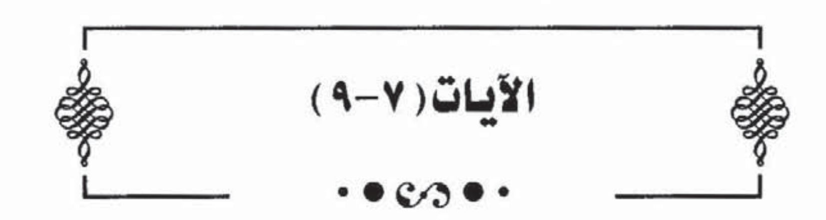
أما رَحْمَتُه بالمؤمنينَ فهي رحمةٌ عامَّة وخاصَّة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ عمومِ عِلْمِ الله؛ لقوله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ هذين الاسمينِ من أسمائه: العزيز الرَّحيم، وما تضَمَّناه من الصِّفَة وهي العِزَّة والرَّحمة، وكمالُ عِزَّته ورَحْمَته باجتماعهما: أنه مع كونه عزيزًا قاهرًا غالِبًا فهو أيضًا رحيمٌ؛ لأنَّ بعض الأَعِزَّاء إذا عَزَّ لا يَرْحَم، وبعض الرُّحَماءِ تَصِلُ به الرَّحْمَةُ إلى أن يكون في مقامِ الذُّلِّ؛ فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جامِعٌ بين العِزِّ والرَّحْمَةِ، وهذا من كماله؛ يعني: الجمعُ بين العِزَّة والرَّحمة فيه كمالٌ أكثَرُ من إثباتِ العِزَّة والرَّحْمة، وهو: أنَّ رَحْمَتَه مقرونَةٌ بعِزٍّ ليست رحمةَ ذلٍّ، وأنَّ عِزَّته أيضًا مقرونَةٌ برَحْمَةٍ ليست عِزَّةَ جَبَروتٍ لا رحْمَةَ فيها.

• • ۞ • •



الآيات (٧-٩)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ [السجدة:٧-٩].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ بفتح اللام فعلًا ماضيًا؛ صِفَةٌ، وبِسُكُونها بدلُ اشْتِمالٍ] «الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ» القراءَةُ الثَّانية سَبْعِيَّةٌ؛ فعلى القِراءَةِ الأُولى ﴿أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ الجُمْلَة فعليَّة صِفَةٌ لشَيْءٍ؛ وعلى القِراءَةِ الثَّانية: «الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ» يقول: [بَدَلُ اشتمال] ويكون المعنى: الَّذي أَحْسَنَ خَلْقَ كُلِّ شَيْءٍ؛ لأَنَّه سَبَقَ لنا أن القاعِدَةَ في بدلِ الاشتمالِ: أنه يَصِحُّ إضافتُهُ إلى المُبْدَلِ منه؛ تقول: نَفَعَنِي زَيْدٌ عِلْمُهُ؛ فتقول: نفعني عِلْمُ زَيْدٍ، وتقول: أَعْجَبَنِي زَيْدٌ فَهْمُهُ؛ أي: فَهْمُ زَيْدٍ، وتقول: اشْتَرَيْتُ زَيْدًا ثَوْبَهُ؛ أي: ثَوْبَ زَيْدٍ، هذا بدلُ الاشتمالِ، فإنَّه يصِحُّ أن يُضافَ إلى المُبْدَلِ منه؛ على أَنَّه يُحْتَمَلُ أنْ تكون (ثَوْبَه) بَدَلَ غَلَط، كأَنَّه أراد أن يقول: اشْتَرَيْتُ ثَوْبَ زَيْدٍ، فقال: اشتريتُ زيدًا ثوبَه.

فهنا نقول قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ» يعني: الذي أَحْسَنَ خَلْقَ كُلِّ شيءٍ، والمعنى أَنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الخالِقُ، وأَنَّ كلَّ شيء خَلَقَه فقد أَحْسَنَه، ولكنَّ هذا الإحسان يتفاوَتُ؛ ففي الآدَمِيِّ يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ

فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين:٤] وقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار:٧] أحسن خِلْقَة من الحيواناتِ هو الآدميُّ، ولكِنْ مع ذلك كلُّ شيءٍ له خِلْقَة تُناسِبُه وهي بالنِّسْبة إليه حَسَنَةٌ، ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗا﴾ [الأنعام:١٤٢] الحَمُولَةُ: ما يُحْمَلُ عليه، والفَرْشُ ما لا يُحْمَلُ عليه، كلُّ شيءٍ من هذا وهذا فإنَّه قد خُلِقَ على أَحْسَنِ ما يكون وأَنْسَبِ ما يكون لِمَا خُلِقَ له.

قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَبَدَأَ﴾ يعني: ابتدأه، وقوله تعالى: ﴿خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ هل المرادُ الجِنْسُ أو المراد العَيْنُ؛ بدأ خلق الإنسان؟ المُفَسِّر مشى على المراد العَيْن، وهو الإنسان المُعَيَّنُ وهو آدم، ويُحْتَمَل أن يكون المرادُ به الجِنْسَ، وبدأ خلْق الإنسان؛ لأنَّ آدَمَ من الإنسان فإن الله بيَّن أنَّ ابتداء خلق هذا الإنسان أَصْلُه من الطِّينِ، وفَرْقٌ بين قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ وبين: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن طِينٖ﴾ فإنَّ الأخيرة أَبْيَنُ في كون المرادِ به شيئًا فشخصًا مُعَيَّنًا بخلاف (بدأ).

على كلِّ حالٍ: فالآيةُ مُحْتَمِلَة أن يكون آدَمَ أو أن يكون المرادُ به الجِنْسَ، على القول: أنه آدم نمشي.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ﴾ أي: نَسْلَ الإنسانِ الذي ابتدأ من الطِّينَ؛ جعَلَ نَسْلَهُ يقول: [ذُرِّيَّته]؛ لأن النَّسْلَ بمعنى الانفصالِ؛ كما في قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء:٩٦] أي: يَنْفَصِلونَ مُسْرِعينَ، فالنَّسْلُ هو الذُّرِّيَّة؛ لأنَّها ناسِلَةٌ من أبيها؛ أي: مُنْفَصِلَة من سُلالَةٍ من ماءٍ مَهِينٍ.

وقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ﴾ من ماء: هذه صِفَةٌ لسُلالَةٍ؛ سلالَة من الماء، والغريبُ أن المُفَسِّر فسَّر السُّلالَة بـ[العَلَقَة] وليس كذلك، بل السُّلالَة: الخالِصُ من الشَّيء؛ فسلالةُ الشَّيء خالِصُه الذي يسَل منه، فقوله تعالى: ﴿مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ﴾

أي: من خالصٍ من هذا الماء؛ لأنَّ الماء بإذن الله الذي هو المنيُّ يشتمل على حيواناتٍ منويَّة؛ منها يُخْلَقُ الإنسانُ، فهذه النُّطْفَة بمنـزلة القُمْقُم في الرَّحِم؛ يعني: فيها نُمُوُّ الحيوانات المنويَّة، فهذا هو السُّلالَة.

وقوله تعالى: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ صِفَةٌ لـ﴿سُلَٰلَةٍ﴾ فإن هذه السُّلالة من هذا الماء.

وقد يُقال: لماذا لا تجعلون ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ بيانًا لقوله تعالى: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ يعني: من سُلالَةٍ هِيَ الماءُ المهينُ؟

نَقُول: هذا خلافُ الظَّاهِرُ، والظَّاهِرُ: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ من هذا الماء، والماءُ المَهينُ يكون ضعيفًا وهو النُّطْفَة، ووُصِفَ بأنه ضعيفٌ؛ لأنه لا يسيلُ سَيَلانَ الماءِ فهو يَسيلُ بِبُطْء، والماءُ أقوى منه سَيَلانًا؛ ولهذا قال: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ لأنَّ الماءَ الغليظَ ليس مِثْلَ الماءِ الَّذي ليس فيه غِلْظَةٌ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ إذا مشَيْنا على ما قال المُفَسِّر ففيه إشكالٌ كبيرٌ، وهو أنَّه يقتضي أنَّ تَسْويةَ آدَمَ بعد جعْلِ السُّلالَةِ من ماءٍ مهينٍ. وهذا خِلافُ الواقِعِ؛ يعني: تَسْوِيَة آدَمَ قبل أن تكونَ سلالَتُه من ماءٍ مهينٍ، فما هو الجوابُ عن هذا؟

الجوابُ من أحد وَجْهَيْنِ: إمَّا أن يُقالَ: إنَّ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ هذه جُمْلَة مُعْتَرِضَةٌ لبيانِ أنَّ آدَمَ الذي كان من طينٍ كان نَفْسُه من السُّلالَةِ، ثم عاد إلى آدَمَ فقال: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾، وإمَّا أن يُقالَ: إنَّ هذا من بابِ التَّرتيبِ الذِّكْريِّ، وليس من باب التَّرتيبِ المَعْنَويِّ أو الوَقْتِيِّ، والتَّرتيبُ الذِّكْريُّ موجودٌ في كلام العَرَبِ، ومنه قولُ الشَّاعِر:

إنَّ مَـنْ سـادَ ثُـمَّ سـادَ أَبُـوهُ ثُمَّ سادَ مِـنْ بَعْـدِ ذَلِـكَ جَـدُّه[١]

وهذا التَّرتيبُ على خلافِ الواقِعِ، هذا أحَدُ الوَجْهَينِ.

وأمَّا إذا قُلْنَا: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ ﴾ أي: النَّفْخ ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ كما قالَهُ بَعْضُ المُفَسِّرينَ، فالآيَةُ على التَّرتيبِ ليس فيها إشكالٌ، لكنْ هذا القولُ فيه إشكالٌ في قوله تعالى: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ فإنَّ هذا الوَصْفَ خاصٌّ بآدَمَ؛ كما قال موسى له وهو يُحاجُّه: «أَنْتَ الَّذِي عَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَرْسَلَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ»[٢]، فظاهِرُه أنَّ هذا خاصٌّ بآدَمَ.

ولهذا، الوَجْهُ الأَوَّلُ أَوْلَى من هذا الوَجْهِ، وإن كان الوَجْهُ الأَوَّلُ له قُوَّةٌ من حيث الترتيبُ بـ(ثُمَّ) لكنْ من حيث إنَّ نَفْخَ الرُّوحِ ما كان إلا في آدَمَ وفي عيسى كما هو معلومٌ، فإنَّه يدلُّ على أنَّ المرادَ بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ ﴾ المراد به آدمُ، ويكون عَوْدًا على بَدْءٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ كَلِمَةُ ﴿مِن رُّوحِهِۦ﴾ مضافةٌ إلى الله، وفيها إشكالٌ؛ إذ إنَّ ظاهِرَها أنَّ آدمَ فيه شيءٌ من رُوحِ الله، فيكون جزءًا من الله، وهذا شيءٌ مُمْتَنِع مستحيلٌ، فمعنى الإضافةِ إذن: إضافَة خَلْقٍ وتَشْريفٍ؛ كما قال تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ بيتي، وهل الكَعْبَةُ بيتٌ لله يَسْكُنُه؟

الجوابُ: لا، لكنَّه بيتٌ أضافَهُ الله عَزَّوَجَلَّ لنَفْسِهِ على سبيلِ التَّشْريفِ والتَّعظيمِ،

---

(١) البيت لأبي نواس الحسن بن هانئ، يمدح به العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر. انظر: ديوانه ط. آصاف (ص:١٢٢)، خزانة الأدب (١١/ ٤٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم (٢٦٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٤] وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس:١٣] فهذه الإضافةُ على سبيلِ التَّشْريفِ والتَّعْظيمِ لهذا الشَّيْء.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أَيْ: جَعَلَهُ حَيًّا حَسَّاسًا بَعْد أَنْ كَانَ جَمادًا].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ هذا الْتِفاتٌ من الغَيْبة إلى الخطابِ؛ فإنَّه بدأ خَلْقَ الإنسانِ من طينٍ، ثم جعل نَسْلَه، كلُّ هذا غَيْبَةٌ، ثم سوَّاه: غَيْبة، ونَفَخ فيه من روحه: هذا غَيْبَة؛ ثم قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ هذا خِطابٌ.

والالتفاتُ له فوائِدُ:

الفائِدةُ الأُولَى: تنبيهُ المُخاطَب؛ لأنَّ الكلامَ إذا كان على وتيرة واحِدَة؛ ما حَصَل تَنَقُّلٌ، لكن إذا اختلف يَحْصُلُ التنقُّلُ سواء اختلف بعَوْدِ الضَّمائِرِ؛ كالانتقالِ من الغَيْبَة إلى الخطاب أو بالعَكْس، أو اخْتَلَف في شِدَّةِ الصَّوْت، فعندما يكون الإنسانُ كلامُه هادئًا على وَتيرَةٍ واحِدَةٍ لا يكون هناك انْتِباهٌ، لكن لو أتى بِزَجْرٍ في بعض الأَحْيانِ يَحْصُل الانتباهُ؛ فالالتفاتُ أو تغيُّر الخطابِ؛ كُلُّه يَحْصُلُ به الانْتِباهُ.

والفائِدَة الثانِيَة: تكونُ حَسَبَ السِّيَاق؛ إمَّا مثلًا الزيادةُ في التَّوبيخِ، أو الزِّيادَة في بيان النِّعْمَةِ، وما أشبه ذلك حَسَبَ السِّياقِ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَكُمُ﴾ أي: لِذُرِّيَّته]، فالخطابُ لا شكَّ أنه للذُّرِّيَّة كما قال المُفسِّر.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ قال المُفسِّر [بمعنى الأَسْماعِ] وأوَّلَها إلى الأَسْماعِ؛

لأن ﴿لَكُمُ﴾ خطاب لِجَمْع، وإذا كان الخطابُ لجمْعٍ لَزِمَ أن يكون السَّمْعُ لكُلِّ واحِدٍ، فيكون جمعًا.

قال أهلُ اللُّغَة: وإنَّما أَفْرد السَّمْعَ وجَمَعَ الأبصار؛ لأنَّ السَّمْعَ مَصْدَرُ سَمِعَ يَسْمَعُ سَمْعًا، والمصدَرُ لا يُجمَعُ ولا يُثَنَّى، وإنَّما يبقى مُفردًا ويكون مُرادًا به الجِنْس، والأبصارُ جَمْعُ بَصَرٍ، وهو القوَّة الباصِرَة وليس مصدرًا؛ لأنَّ المَصْدَرَ إبصارٌ؛ أَبْصَرَ يُبْصِرُ إبصارًا؛ ولهذا جَمع؛ حيث إنَّ المرادَ به الجِنْسُ.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ الأفئِدَة يعني [القلوب]، فذكر الله عَزَّوَجَلَّ طريقَ الفَهْم ومكانَ الفَهْم؛ فطريقُ الفَهْمِ هو السَّمْعُ والبَصَر؛ ومَحَلُّ الفَهْـم والوَعْي هو القَلْبُ؛ ولهذا يكون السَّـمْعُ والبَصَرُ كقَنَاتَيْنِ تَصُبَّان في القَلْب، فيتلقَّى ما يَسْمَع أو يُبْصِر ثم يَصبَّان في القلب، وهو مَحَلُّ الوعي والإدراك.

ولماذا لم يَذْكُرِ الشَّمَّ والذَّوْق واللَّمْسَ؟

الجوابُ: لأنَّ الاتِّعاظَ بالآيـاتِ يكـون بالسَّمْـعِ والبَصَر، وبـدأ بـالسَّمْعِ؛ لأنَّه أَشْمَلُ وأعَمُّ؛ لأنك تَسْمَعُ ما لا تراه، ولما كان أشْمَلَ وأعَمَّ كان الابتلاء به -والحمد لله- أقَلَّ، لو نَسَبْت الشَّمَّ إلى العمى لوجدْتَ النِّسْبَةَ قليلةً؛ لأنَّ الصَّمَمَ أَشَدُّ، فوجود السَّمْع أهَمُّ.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ [﴿قَلِيلًا مَّا﴾ ما: زَائِدَة مُؤَكِّدَة لِلْقِلَّة] ﴿قَلِيلًا﴾ مفعولٌ مُطْلَق يعني: تشكرون شُكْرًا قليلًا؛ يعني: مع هذه النِّعَم التي ساقها الله عَزَّوَجَلَّ منذ ابْتَدَأ خَلْقَ الإنسانِ إلى انتقالِهِ في الأَرْحام إلى خُرُوجه بالسَّمْع والبَصَر والقلب؛ مع هذه النِّعَم العظيمَةِ فالشُّكْرُ قليلٌ؛ أي:

تَشْكرونَ شُكْرًا قليلًا.

و(ما) هذه يقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [زائِدَةٌ مُؤَكِّدَة للقِلَّة] وهذا معروفٌ حتى في الأساليب العُرْفِيَّة الآن؛ تقول: (قليلًا ما...) يعني: توكيدٌ لهذه القِلَّة، فـ(ما) زائِدَةٌ.

من فوائد الآيات الكريمة:

يُسْتَفاد من قَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: كمالُ خَلْقِ الله تعالى؛ لأنه أَحْسَنَه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ كلَّ مخلوقٍ خُلِقَ على ما يُناسِبُ حالَه، وَجْهُ الدَّلالة من الآية: أنَّه لو لم يكن الأَمْرُ كذلك لما كان إحسانُ خَلْقٍ، فإذا كان هذا كذا وضَمَمْتَها إلى آيةِ سُورَة طه وهي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ يعني خَلْقَه المناسِبَ له، ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠] أي: هداه لمصالحه المناسِبَة له، فلو أنَّ هناك مسابقةً في وظيفَةٍ فلا تُسابِقُ فيه البَقَرُ؛ فليس مِن شَأْنها، لكن لو أُلْقِيَ عَلَفٌ في زاوِيَةٍ من البيت تسابَقَت إليه؛ لأنَّ الله هدى كلَّ مخلوقٍ لما يناسِبُه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تكذيب النَّظَرِيَّةِ الكاذِبَة، وهي نظريَّةُ دَارون الذي يقول: إنَّ الخَلْق نشأ بالتَّطَوُّر، وأنَّ أَصْلَ الإنسان قِرْدٌ، ثم صار على طول الزَّمَنِ إنسانًا، وعلى قاعِدَتِه لا ندري ماذا سيكون الإنسانُ على طول الزَّمَنِ؟! ولا شكَّ أنَّ هذه النَّظَرِيَّة باطِلَةٌ وكُفْرٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ نأخذها من قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ فلا أَصْدَق من هذه الآية شَيْء.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تمامُ قُدْرَتِه تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ حيث خَلَق هذا الإنسانَ العجيبَ في خَلْقِه وفَهْمِه وتَدْبيرِه وذكائِه من هذا الشَّيْءِ الجمادِ، وهو الطِّينُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ أَفْعالِ الله الاختياريَّة التي تتعلَّقُ بِمَشيئَتِه؛ تُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ﴾، فإنَّ البَدْءَ يكون عَنْ عَدَم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الإنسانَ حادِثٌ بعد أنْ لم يكنْ؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ﴾.

ويُسْتَفاد من قَوْلِه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ هذا الإنسانَ الذي خُلِقَ من الطِّينِ له نَسْلٌ، وجعَلَ له نسلًا من أجل أن يبقى هذا النَّوعُ من المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإنسان يُخْلَقُ من المَنِيِّ؛ لقوله تعالى: ﴿نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ والسُّلالَةُ هي الخُلاصَة، والماء المَهينُ هو المنِيُّ، وعلى هذا فهو مَخْلوقٌ من مَنِيِّ الرَّجُلِ لا مَنِيِّ الأُنثى؛ لأنه ماءٌ من المَنِيِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حكمة الله عَزَّوَجَلَّ لهذا الماء؛ حيث جَعَلَه على هذا الضَّعْفِ وعلى هذا النَّوْعِ من أجل حِفْظِ الحيوانِ المنويِّ؛ إذ لو كان سائلًا سُيُولَةَ الماء ما احتفظ بهذه الحيواناتِ، ولو كان غليظًا أَثْخَنَ من هذا لكان منه ضَرَرٌ على هذه الحيواناتِ، فربما تموتُ، ولكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ جعله على هذا الوَضْعِ المُناسِب.

ويُسْتَفاد من قَوْلِه تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ...﴾ إلى آخره:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَكْمَلَ خَلْقَ الإنسانِ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ ويؤيِّدُ ذلك قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] وقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:٦٤].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإنسانَ جِسْمٌ، ولا يكون إنسانًا إلا بالرُّوحِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ومنها -وليس بذاك القويِّ-: أنَّ الرُّوحَ جِسْمٌ؛ لأنَّها تُنْفَخُ في هذا الجِسْم البائِدِ، وهو كذلك، فإنَّ الرُّوح جِسْمٌ لكنَّها جِسْمٌ لطيف لا يُرَى، مع أنَّ الملائِكَة تَقْبِضُه وتَجْعَلُه في الحَنُوط وتَصْعَدُ به إلى السَّماء، لكن نحن لا نراه عندما تَخْرُج رُوحُ الميِّت ونحن عنده.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بيان نِعْمَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على الإنسانِ بجَعْل السَّمْع والأَبْصارِ والأَفْئِدَة التي بها إدراكُ المعقولِ وعقله؛ فإدراكُ المَعْقولِ بالسَّمْع والبَصَر، وعقله بالقَلْبِ ووَعْيه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الإنسان قليلُ الشُّكْر؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ كما أنَّ الشَّاكِرَ قليل أيضًا، فالشاكِرُ قليلٌ والقائِمُ بالشُّكْر على الوَجْهِ المطلوبِ قليلٌ؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، والشَّاكِرُ قليلٌ؛ لأنه من حيث الأفرادُ والأشخاصُ واحِدٌ في العَشْرة، وهذا قليلٌ، ونَفْسُ الواحِدِ هذا أيضًا شُكْرُه قليلٌ، فالشَّاكِرُ قليلٌ، وشُكْرُ الشَّاكِرِ أيضًا قليلٌ.

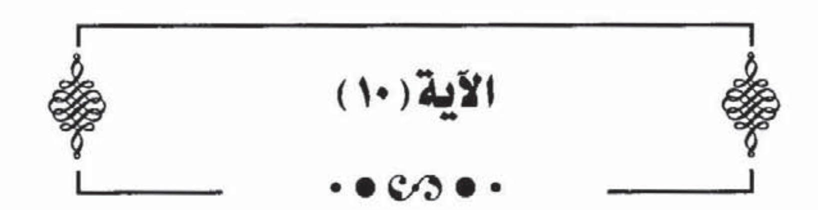
فقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ هذا باعتبارِ شُكْرِ الشَّاكِرِ، وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ باعتبارِ الأَفْرادِ الشَّاكرينَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ذَمُّ من لا يَشْكُرُ؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه ينبغي للإنسانِ أن يكون شُكْرُه على حَسَبِ النِّعْمَةِ؛ ففي السَّمعِ يَسْتَعْمِل السَّمْعَ فيما يُقَرِّبُ إلى الله ويَمْنَعُه عما حَرَّم الله، وكذلك في البَصَر؛

أما القَلْبُ فيجب عليه أن يُعْرِضَ بِقَلْبِهِ عن كلِّ ما حَرَّم الله، وأن يُقْبِلَ بقَلْبِهِ على كلِّ ما أَمَرَ الله به.

• • ۞ • •



الآية (١٠)

• ● ✿ ● •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ [السجدة:١٠].

• ● ✿ ● •

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ قال المُفَسِّر [أي: مُنْكِرو البَعْثِ] قالوا: يريدونَ هذه الشُّبْهَةَ: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ غِبْنا فيها بأنْ صِرْنا ترابًا مُخْتَلِطًا بتُرابِها] هذا معنى ﴿ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا﴾ يعني: غِبْنا فيها وصِرْنا ترابًا كسائِرِ التُّرابِ، فإذا حصل ذلك: ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ اسْتِفْهامُ إنكارٍ؛ يعني: أَنكُونُ في خَلْقٍ جديدٍ بعد أن أَكَلَتْنَا الأرضُ وضَلَلْنا فيها؟! والاسْتِفْهامُ هنا إنكارِيٌّ؛ يعني: لن نكون ذلك، هذه الشُّبْهَة.

وهل هي حُجَّةٌ أم غير حُجَّةٍ؟

الجوابُ: ليست بحُجَّةٍ؛ لأنَّنا نقول: أنتم خُلِقْتُم من تراب، والذي خلقكم أوَّلًا من تراب قادِرٌ على أن يُعيدَكُم ثانيًا من هذا التُّراب؛ ولهذا جاءت هذه الآيةُ بعد ذِكْرِ خلْق الإنسانِ من طين.

وقوله تعالى: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا﴾: (إذا) هذه شرطِيَّةٌ، جوابها مفهومٌ من الجُمْلَة بعدها؛ يعني: أإذا ضَلَلْنا في الأرض نَنْشَأُ خَلْقًا جديدًا؟! وقولهم: ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ يعني: أَيتَأَكَّدُ أنَّنا في خلقٍ جديدٍ.

وَلِهَذَا لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا كانَتِ الجُمْلةُ الاسْتِفْهامِيَّة هنا للإنكارِ، فكيفَ تأتي اللّامُ الدَّالَّةُ على التَّوْكيدِ ﴿أَءِنَّا لَفِى﴾؟

نَقُول: المراد يُنْكِرونَ أن يتأكَّدَ ذلك، يعني: أيتَأَكَّدُ أنَّنا في خلقٍ جديدٍ بعد أن تأكُلَنا الأَرْضُ، وهو كقولِ إخْوَةِ يُوسُفَ: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ [يوسف:٩٠].

فالمُهِمُّ: أنَّ هذا التَّأْكيدَ كأنَّهم يُنْكِرونَ ما أُكِّدَ من كَوْنِهم يُرْجَعونَ ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَفِى خَلْقٍ﴾ هل الخَلْقُ هنا بمعنى المَخْلوقِ؛ يعني: أَإنَّا لَنكونُ في أمَّة جديدة، أو أنه مَصْدَرٌ بمعنى التَّقريبِ؛ يعني ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ﴾ أي: لأن يَخْلُقَنا الله؟

يحتمل المعنيينِ، وكلاهما صحيحٌ ولا يَتَعارضانِ، يعني أَنكُونُ في خلقٍ جديدٍ وأمَّةٍ جديدة، أو أَنخْلَقُ خَلقًا جديدًا بعد أن ضَلَلْنا في الأَرْض وكنَّا ترابًا؟!

والجوابُ: وما ذلك على الله بِعَزيزٍ، فالذي أنشأَكُم من التُّرابِ قادِرٌ على أن يُعيدَكُم منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حتى لو فَنِيَ الإنسانُ كلُّه، مع أنه ورد في الحديث أنه «يَفْنَى كُلُّهُ إِلَّا عَجَبَ الذَّنَبِ»[1] فإنَّه منه يُخْلَقُ الإنسانُ كالنَّواةِ بالشَّجَرة، فيُسْتَثْنى من ذلك الأنبياءُ عليهم الصَّلاة والسَّلام؛ فإنَّ الله حرَّم على الأرضِ أن تأكُلَ أجسادَ الأنبياءِ، وهذا دليلٌ على قُدْرَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإلَّا فالأنبياءُ بَشَرٌ؛ لأنَّهم خُلِقُوا أصلًا من ترابٍ، لكن الآن من لَحْم وعَظْم وجِلْد كسائر بني آدَمَ، ومع ذلك الأَرْضُ لا تأكُلُ منهم شيئًا أبدًا، أمَّا غير الأنبياءِ فإنَّها تأكُلُهُم، لكن قد يَحْمي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، رقم (٤٩٣٥)، ومسلم: كتاب الفتن، باب ما بين النفختين، رقم (٢٩٥٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَدَنَ بَعْضِ النَّاس لا تأكله الأَرْض؛ على نوعٍ من الكرامَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ فيها قراءَةٌ: بتحقيقِ الهَمْزَتين، وتسهيل الثانيةِ، وإدخال أَلِفٍ بينهما على الوَجْهَين في الموضعَيْنِ، وحصار عجيب، وفي تحقيق الهمزتين في الموضعين فيُقْرأ: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ هذا التَّحْقيقُ، وإدخالُ ألف بين هَمْزَتين محقَّقتَيْنِ: (آإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ آإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيد) هذا إدخالُ الأَلِف، فعندنا ثلاثَةُ ألفاتٍ؛ وتسهيل الثانية (أَيِذَا) لا تجعلها مُحَقَّقة بل بين الهمزة والياء: (أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْض) بدون ألف، وبألف (أَاِذَا) لا تُبَيِّنْ هذا، واجعلها بين الهمزة والياء، إذن فالقراءاتُ أَرْبَعٌ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث ﴿كَـٰفِرُونَ﴾] يعني: ﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب الإبطاليِّ؛ يعني: بل الأَمْرُ ليس كما شَبَّهوا ولبَّسُوا، فهم يعلمون قُدْرَة الله لكنَّهم جاحدون: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿كَـٰفِرُونَ﴾ و﴿كَـٰفِرُونَ﴾ خبرُ المبتدأِ ﴿هُم﴾ أي: بل هم كافرون بلقاءِ ربِّهِم أو بملاقاتِهِ. ومتى تكون الملاقاةُ؟

الجوابُ: تكون بالبَعْثِ، ومن كذَّبَ بلقاءِ الله فقد كفر بالله؛ ولهذا قال المُفَسِّر مفسِّرًا لها بالمراد لا بالمعنى؛ قال: [بالبعث] وإلَّا فهي أخصُّ من البَعْث؛ فاللِّقاءُ بمعنى الملاقاةِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦] الإنسانُ أيُّ إنسانٍ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق:٧] إلى آخره.

فهؤلاء الكافرونَ بلقاء الله؛ لأنَّهم لا يؤمنون بالبَعْثِ، ومن لم يُؤْمِنْ بالبَعْث لم يؤمِنْ بلقاءِ الله.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: توبيخُ هؤلاءِ الْمُنْكِرِينَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هؤلاء المكَذِّبِينَ كانوا شاكِّينَ في قُدْرَةِ الله؛ لقولهم: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا ٱفْتَرَنُهُ... أَءِنَّا﴾ ويُحْتَمَل أن يكون ذلك منهم مكابَرَةً وأنَّهم عالِمون بقُدْرَة الله، لكن يُكابِرون، ويُؤَيِّد هذا قوله تعالى: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ يعني أنَّ الأَمْرَ واضِحٌ لكنْ هؤلاء كُفَّارٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تمامُ قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ بإعادَةِ الأَمْواتِ بعد أن غابوا في الأَرْض واضمحَلُّوا فيها، فيُنْشِئُهُم الله تعالى خلقًا جديدًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إبطالُ قَوْلِ من يقول: إنَّ البَعْثَ إيجادٌ مِن عَدَمٍ؛ فإن هناك من يقولُ: إنَّ هذا الخَلْقَ يُعْدَم بالكُلِّيَّة ثم يُنْشَأُ من جديدٍ، وهذا قولٌ باطِلٌ؛ لأنه لو كان الأَمْرُ كذلك لكان الثوابُ لمن لا يَعْمَلُ، والعُقوبة على من لم يَعْمَلْ، ولو قلنا إنَّه يُعْدَمُ بالكلِّيَّة ثم يُنْشَأُ خلْقًا جديدًا ويُحاسَبُ، فهذا الجديدُ ليس موجودًا بالأَوَّلِ فيكون معاقَبًا على ما لم يَفْعَلْ ومُثَابًا بما لا يَفْعَلُ؛ والله تعالى قد بَيَّنَ أنَّ الإنسانَ نَفْسَه هو الذي يُعادُ وليس يُعْدَمُ ثم يُخْلَقُ من جديدٍ، ولكنَّه يُعادُ، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ فلم يَقُلْ نَخْلُق غَيْرَه.

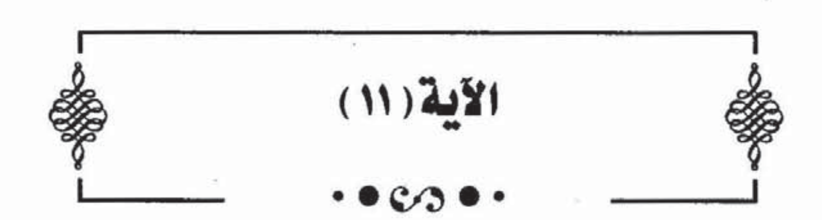
والشَّاهِدُ قَوْلُه: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾ يقولون: كيفَ بعدما نَغيبُ في الأَرْضِ ونكون ترابًا كيف نُبْعَثُ؟! فدلَّ هذا على أنَّ البَعْثَ هو إعادةُ ما سَبَقَ وليس باستدعاءِ خَلْقٍ جديدٍ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هؤلاء الْمُنْكِرينَ للبَعْثِ ليس عندهم حُجَّةٌ إلا مُجَرَّد الكُفْرِ؛

لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ ملاقاةِ الله عَزَّوَجَلَّ يومَ القِيامَةِ؛ لقوله تعالى: ﴿بِلِقَآءِ﴾ ومِثْلُه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦].

• ● ۞ ● •



۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة:١١].

•●۞●•

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ﴾ لهم ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي: بِقَبْضِ أرواحِكُم] ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ يَقْبِضُكُم، كما تقول: توفَّيتُ حقِّي من فلانٍ؛ أي: طَلَبْتُه وكذلك استوفَيْتُه؛ أي: قَبَضْتُه على سبيل الوفاء وهو الكمالُ، فمعنى يتوفَّاكُم أي يَقْبِضُكم، والمراد قَبْضُ الأَرْواح.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ مَلَكٌ: مُفْرَد ملائِكَةٍ، أو مُفْرَدُ أَمْلاك، وهو مُشْتَقٌّ من الأَلُوكَةِ بمعنى الرِّسالَةِ، وعلى هذا فأصْلُه مَأْلَكٌ، ثم حُوِّل فقُدِّمَتِ اللَّام وأُخِّرَت الهمزةُ، فكانت (مَلْأَك) ثم خُفِّفَ فحُذِفَتِ الهمزةُ فصار: مَلَكًا؛ ولهذا إذا جُمِع جاءت الهمْزَة فقيل: ملائكة، ولا يقال: مَأَلِكَة؛ لأنَّ فيه إعلالًا بالتَّحويلِ؛ يعني: تقديم وتأخير وهو من الأَلُوكَة؛ أي: الرِّسالة؛ فمَلَكُ الموتِ معناه الذي أَرْسَلَه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لقَبْضِ الأرواح؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ أُضِيفَ إلى الموت؛ لأنه يُميتُ النَّاسَ بإذن الله، فسُمِّيَ مَلَكَ الموت، وقد سُمِّيَ في بعض الآثارِ بعِزْرَائِيلَ، ولكنَّه لم يَصِحَّ

عن رسول الله ﷺ؛ وقد صَحَّ من أسمائهم: جِبْرائِيلُ ومِيكائيلُ وإِسْرافيلُ[1] ومالِكٌ خازِنُ النَّارِ ورِضْوانُ خازِنُ الجنَّة[2].

وعلى كلِّ حالٍ: عِزْرائيلُ لم يَثْبُت عن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على الرَّغْمِ أنَّ هذا الاسم أشْهَرُ أسماءِ الملائكة عند العامَّة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ وكَّلَهُ الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا التَّوْكيلُ ليس توكيلًا لحاجَةٍ، ولكنَّه توكيلُ سُلْطانٍ وعظمة؛ لأنَّ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ لا يحتاج إلى أحد يُعِينُه، وَكُلُّ من وُكِّلَ مِنَ الملائكة بشيءٍ فَلَيْسَ ذلك على سبيل الحاجَةِ، أمَّا أنا إذا وَكَّلْتُ أحدًا فقد أكون محتاجًا إلى هذا؛ لأنَّني لا أستطيع مُباشَرَةَ العمل، لكِنْ ربُّنا عَزَّوَجَلَّ لا يحتاج، وإذا أراد شيئًا قال له كُنْ فيكونُ، لكنَّه يُوَكِّلُ ذلك توكيلَ سُلْطانٍ وعَظَمَة؛ لبيان سُلْطانه وعَظَمَتِه، وأنَّ كلَّ شيء في خِدْمَته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي عبادته.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي: وَكَّلَه الله؛ إذن الله وَكيلٌ ومُوَكِّلٌ؛ قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب:٣] ومُوَكِّلٌ كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ [الأنعام:٨٩] وهنا قال: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ ولكنْ ليس كونُه وكيلًا بمعنى أنه مُتَوَكِّل لغيره، والمُوَكِّل أعلى منه كما هو مَعْهودٌ، ولكنَّه وكيلٌ بمعنى رَقيب على عباده مُهَيْمِن عليهم.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ هنا مُفْرَدٌ ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ﴾ وفي آية أخرى في سورة الأنعام ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ فقال: ﴿رُسُلُنَا﴾ فجمَعَ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه الدارقطني في جزء رؤية الله رقم (٦٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ في الزُّمَر، فكيف نَجْمَعُ بين هذه الآيات الثَّلاثِ؟

الجوابُ: جمع أهل العلم بينهُنَّ: بأنَّ قولَه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ ﴾ هذا هو الأَصْلُ، أما المتوفِّي هو الله لأنَّه المُدَبِّر، المدبِّرُ للشيء، والمدبِّرُ للشيء فاعلٌ له؛ كما تقول: بنى المَلِكُ قصرًا للحُكْم؛ فهل يعني ذهب وجاء بالزنبيل وجاء بالفاروعِ، وجاء بالمِسْحَاة، وجاء بالماءِ وجَهَّز الطينَ وحمل على مَتْنِه ليبنِيَ؟

الجوابُ: ليس المعنى كذلك؛ إذن معنى بناه؛ أي: أَمَرَ ببنائِهِ، لكنْ لما كان هذا البناءُ لا يتِمُّ إلا بأَمْرِه أُسْنِدَ إليه؛ فالله تعالى يتوفَّى الأَنْفُسَ فلا يكون تَوَفِّيها إلا بأمره، فأُسْنِدَتِ الوفاةُ إليه.

أما قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ وقوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ فإمَّا أن يقال: إنَّ مَلَكَ الموت هنا مفردٌ مضاف، وهذا له وَجْهٌ في اللُّغَة العربيَّة، لكن ليس بصحيحٍ من ناحِيَة الواقِعِ، ولكنَّ الواقِعَ أن مَلَكَ الموتِ له أعوانٌ، له أعوانٌ قَبْل قَبْضِ الرُّوح، وأعوانٌ بَعْد قَبْضِ الرُّوح؛ فالأعوانُ قبل القَبْضِ يسوقونَ الرُّوحَ من البَدَن حتى تَصِلَ إلى الحُلْقُومِ ثم يَقْبِضُها، وأعوانٌ بعد ذلك إذا قبضها فهناك ملائِكَةُ الرَّحمة تنتظِرُ هذه الرُّوحَ بالكَفَنِ الذي من الجَنَّة فلا يَدَعُونَها في يده طَرْفَةَ عين حتى يَقْبِضوها ويَجْعَلوها في ذلك الكفَنِ، وإن كان الإنسانُ بالعَكْس -والعياذ بالله- فيكون عنده ملائِكَةُ العذابِ، معهم كفنٌ من نار لا يَدَعُونها في يده طَرْفَةَ عينٍ.

فيكون هنا المرادُ: الجمع بينهما: أنَّ إسنادَ الوفاة إلى الرُّسُل إلى الملائكة وهم جَمْعٌ؛ لأنَّهم أعوانُ مَلَكِ الموتِ، فكان لهم نَوْعُ مُشارَكَةٍ في هذا الفعل، ومَلَكُ الموت هو الذي يقبضها إذا بلغت الحُلْقُومَ، وبهذا الجَمْعِ يزول الإشكالُ.

ونحن قد بيَّنَّا كثيرًا أنَّ القرآنَ والسُّنَّة ليس فيهما تعارُضٌ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا﴾ [النساء:٨٢] لأنه إذا رَأَيْتَ في شيء منهما تعارضًا فاعلم أن ذلك من سُوءِ فَهْمِك أو قِلَّة عِلْمِك، فتَدَبَّرْ وتَعَلَّمْ حتى يتبَيَّنَ لك الأمرُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وما الجوابُ عن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾؟

فالجوابُ: لكنَّ الذي يتولى إخْراجَها مباشَرَةً من عند الحُلْقُوم هو مَلَكُ الموتِ، ثم هؤلاء الملائِكَةُ الباسطونَ أيديهم، إن كان أنَّهُم الذين يَنْتَظِرون قَبْلها فهم يَنْتَظِرون قبل أن يَأْخُذَها منه، وإن كان الآخَرونَ الذين يُخْرِجونها حتى تَصِلَ إلى الحُلْقُوم فكذلك، وليس هناك مُشْكِلَةٌ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ [﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي بِقَبْضِ أَرْواحِكُم] يعني: لم يُوَكَّلْ بنا في كُلِّ شيء، ولكنَّه وُكِّلَ بنا بِقَبْض الأرواح فقط، لكنْ هناك ملائِكَةٌ مُوَكَّلونَ بنا في حِفْظ أعمالنا وفي حِفْظنا أيضًا، وكذلك ملائِكَةٌ موكَّلون في أعمالنا يجوبون الأرضَ وينظرون مجالِسَ الذِّكْرِ فَيَجْلِسون فيها.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أحياءً فيُجازيكُم بأَعْمالكم] يعني بعد الموتِ يَرْجِعُ الإنسان إلى ربِّه فيُجازَى بِعَمَلِه إنْ خَيْرًا فخَيْرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الذي يتولَّى قَبْضَ الأَرْواحِ مَلَكُ الموتِ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ الملائِكَةِ؛ لقوله تعالى: ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ والملائِكَةُ عالَمٌ غَيْبِيٌّ

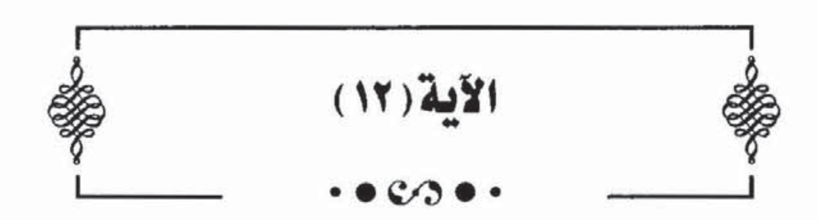
خَلَقَهم الله تعالى من نور، وجعلهم من السَّامعين المطيعينَ له، وأَقْدَرَهُم على فِعْلِ المأمورِ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ [الأنبياء:١٩] وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٠] وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦] لكمالِ الامتثالِ وكمالِ القُدْرَة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تمام تنظيمِ الله عَزَّوَجَلَّ للأُمُورِ وإحكامه لها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ فإنَّ كلَّ مَلَكٍ مُوَكَّلٌ بِشَيْءٍ من الأشياء لتمامِ النِّظَامِ وإِحْكَامِهِ وإِحْسانِهِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: عَظَمَةُ سُلْطانِ الله؛ تُؤْخَذُ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ وقد سبق لنا: أنَّ هذا التَّوْكيلَ ليس عَجْزًا من الله عَزَّوَجَلَّ ولكِنَّه نظامُ سُلْطَانِهِ وعَظَمَتِه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ الرُّجُوعِ إلى الله؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾، ويُؤْخَذُ منه إثباتُ الجَزاءِ؛ لأنَّه هذا هو المقصودُ مِن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾.

• • ❁ • •



الآية (١٢)

• ● ●

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢].

• ● ●

قول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الكافرونَ ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ﴾ مُطَأْطِئُوها حياءً، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ ما أَنْكَرْنا من البَعْثِ ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منكَ تَصْدِيقَ الرُّسُل فيها كذَّبْناه فيك، ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدُّنْيا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ فيها ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ الآنَ].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الخطابُ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ إمَّا للرَّسول ﷺ، وإمَّا إلى كُلِّ من يتوجَّهُ إليه الخطابُ، وهذا المعنى أعَمُّ والأَخْذُ به أَوْلى؛ لعمومه؛ ولهذا الخطاباتُ التي تأتي للمُفْرَدِ في جميع القرآن الأَوْلَى أن تُحْمَل على العموم وأن يُرادَ بها كُلُّ من يتوجَّه إليه الرَّأيُ، إلا إذا منع من ذلك مانِعٌ، فتكون خاصَّةً بالرَّسُولِ ﷺ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾: (لو) هذه شرطِيَّة، و(لو) الشَّرْطيَّة تحتاجُ إلى شَرْط وإلى جواب الشَّرْطِ؛ فالشَّرْطُ قوله تعالى: ﴿تَرَىٰٓ﴾ والجوابُ محذوفٌ تقديرُهُ: لَرَأَيْت أَمْرًا فظيعًا.

وقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾: ﴿إِذِ﴾ هذه ظَرْفٌ؛ يعني:

لو ترى ذلك الوَقْتَ الذي فيه المُجْرِمون على هذا الوَصْفِ لرَأَيت أمرًا مُوجِعًا فظيعًا، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ مبتدأٌ، و﴿نَاكِسُوا۟﴾ خبرٌ، والنُّونُ التي في (ناكِسُونَ) حُذِفَتْ لأَجْلِ الإضافَةِ.

وقوله تعالى: ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: مُطَأْطِئُوها؛ يعني: خافِضُوها، والعياذُ بالله.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعني: عند الله عَزَّوَجَلَّ وَهُم بين يديه يومَ القيامَةِ، ولكن ناكِسُوها، يقول المُفَسِّر [حياءً] وفي النَّفْسِ من هذا التَّفْسيرِ شيءٌ، ولَكِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّهُم ناكِسُوها ذُلًّا وخُضُوعًا لسلطانِ الله؛ بدليل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ أمَّا حياءً فالحياءُ محمودٌ، لكنْ كَوْنُهم يَنْكسونها ذلًّا هذا هو الواقِعُ: ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ذلًّا؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:٤٥].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ جملة: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ مقولٌ لِقَوْلٍ محذوفٍ؛ تقديره: يقولون ربنا أَبْصَرْنا، يعني يا رَبَّنا، ونادَوُا الله تعالى باسم الرُّبُوبِيَّة؛ لأنَّ الغالِبَ أنَّ الجُمَل الدُّعائِيَّة تأتي مُصَدَّرَة بربٍّ؛ لأنَّ (رب) هو المالِكُ المتصَرِّفُ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ ما أَنْكَرْنا من البَعْثِ] هذا ما قاله المُفَسِّر؛ وعليه فيكون مفعولُ أَبْصَرْنا محذوفًا، والتَّقْديرُ: ما أَنْكَرْنا من البَعْثِ.

ويُحْتَمَل أنَّ ﴿أَبْصَرْنَا﴾ هنا أي: حَضَرَت أَبْصارُنا وبصائِرُنا، فيكون أعَمَّ مما قدَّرَه المُفَسِّر؛ يعني: صِرْنا ذَوِي بَصَر وبصيرة الآن، فيكون أعَمَّ؛ يعني كأَنَّهُم يقولون: الآن صِرْنا ذَوِي بَصَر وبصيرة، وهذا المعنى أعَمُّ وأَبْلَغ.

وكذلك (سَمِعْنا) يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(سَمِعْنا) منكَ تَصْديقَ الرُّسُلِ فيما كذَّبْناهُم فيه] لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢] ولكن أيضًا هذا الذي قال المُفَسِّر لنا فيه وجْهٌ أحْسَنُ مما قال؛ فيكون معنى ﴿سَمِعْنَا﴾ أي كنا ذوي سَمْع الآن؛ ولهذا يقولون: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ يعني فيما مضى ﴿أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠] أمَّا في يوم القيامة فيقولون: الآنَ صِرْنا ذَوِي بصر، وصِرْنا ذَوِي سَمْع.

وقوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ﴾ ارْجِعْنا إلى الدُّنيا، وهو فِعْلُ طَلَبٍ أو دعاء، وليس فِعْلَ أمرٍ؛ لأنَّ المخلوقَ لا يوجِّه أمرًا إلى الخالِقِ، وقوله تعالى: ﴿نَعْمَلْ﴾ هذا جوابُ الطَّلَب مجزومٌ؛ يعني: إن تَرْجِعْنا نَعْمَلْ صالحًا.

وقوله تعالى: ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ يعني عملًا صالحًا، والعَمَلُ الصَّالح تقدَّم كثيرًا أنَّه ما جمع شرطينِ؛ هما: الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمُتابَعَة للرَّسول ﷺ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ الآن، فما يَنْفَعُهُم ذلك ولا يَرْجعون] معلومٌ أنه لا يَنْفَعُهم، إذا شاهدوا العذابَ فإنَّ الإيمانَ لا يَنْفَعُهم؛ فكُلُّ من شاهَدَ العذابَ فإنَّه لا ينفعه الإيمانُ؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر:٨٤] قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر:٨٥] ولا أَحَدَ ينفعُه إيمانُه بعد العذابِ إلا قَرْيَة واحِدَة وهم قومُ يونُس؛ لَمَّا آمنوا كَشَفَ الله عنهم العذابَ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ فالآن شاهَدَ العذاب فلا يَنْفَعُ؛ ولهذا يَجِبُ على الإنسانِ أن يبادِرَ عُمُرَه قبل أن يَحِلَّ به أَجَلُه فلا يستطيعُ الخلاصَ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ جاء بالجُمْلَة الاسمِيَّة الدَّالَّةِ على الثُّبُوتِ والاسْتِمْرار ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ الآن؛ لكن لا يَنْفَعُ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ وهذا خبرُ الله عَزَّوَجَلَّ والذي لا يَكْذِبُ ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٧-٢٨].

والمراد الكُفَّارُ، أمَّا الفُسَّاقُ فليسوا دائمين في النَّارِ؛ فعذابُهُم بقَدْر أَعْمالهم، ثم إنَّهم يَدْخُلون الجنَّةَ، والفُسَّاقُ يَعْبُرونَ الصِّرَاطَ ولا يُذْهَبُ بهم إلى النَّارِ مباشرة، بل يَعْبُرون الصِّراطَ ثم يَتَساقَطُون في النَّارِ بِحَسَبِ أَعْمالهم.

قال المُفَسِّر: [وجوابُ (لو): لَرَأَيْتَ أَمْرًا فظيعًا] يعني: الجوابُ محذوفٌ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: ما هي الحِكْمَةُ في حَـذْفِ الجواب؟ ولماذا لا يُذْكَـرُ من أجل أَلَّا يكونَ هناك اختلاف؟ وما هي الحِكْمَة في الإبهامِ في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨]؟ ولماذا لا يُذْكَرُ لأَنَّه أَبْيَنُ؟

الجـوابُ: أَنَّه في مقام التَّهويل ينبغي الإبهامُ؛ لأجـل أن يَذْهَبَ الذِّهْنُ كلَّ مَذْهَبٍ في تعظيم الأَمْرِ وهَوْلِه؛ لأَنَّه إذا ذُكِرَ الشَّيْءِ قد يهونُ؛ فلو قيل لك: والله هناك سَبُعٌ عظيم يأكل النَّاسَ ويفعل ويفعل ويفعل! وهوَّلَ لديك وأنت لم تَرَهُ فسيكونُ عندك رُعْبٌ، لكنْ ربَّما إذا رأيته يهُون عليك الأَمْر؛ كذلك مِثْلُ هذه الأمور العظيمة؛ إذا أَبْهَمَها الله فإنَّها أعظم وأَوْقَـع في النَّفْس وأَشَدُّ وأَعْظَمُ؛ ولهذا حُذِفَ الجوابُ هنا، وأُبْهِمَ الغاشي في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ وأُبهِمَتِ الحاقَّة والقارعة في مثل: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة:١-٣]، ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١-٢] وما أشبه ذلك، وكلُّ هذا من باب التَّعظيمِ والتَّهويلِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هذا بيانُ فَظَاعَةِ ما يَحُلُّ بالكافرينَ يَوْمَ القيامَةِ؛ يؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ والمُقَدَّرُ جوابُها: لَرَأَيْتَ أَمْرًا فظيعًا.

الْفَائِـدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هؤلاءِ المُجْرِمين المُسْتكْبرينَ في الدُّنيـا الرَّافِعي رُؤُوسِهم ستكونُ حالُهُم في يوم القِيامَةِ على العكس من ذلك؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ﴾؛ وقـد قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [حياءً] والصَّواب: أنه ذُلًّا وعـارًا وخِزْيًا، والعياذُ بالله.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ المجرمينَ يومَ القيامة يُقِرُّونَ بالحقِّ؛ تُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ ولكن لا ينفعُ هذا بعد أن شاهد الإنسانُ الجزاءَ، فلا يَنْفَعُه أن يتوبَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ هؤلاءِ يَطْلبونَ الرَّجْعَة إلى الدُّنْيا؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾.

ويتفَرَّعُ عليها: أنَّ الآخِرَة قد يكون فيها شيءٌ من العباداتِ؛ لأنَّ الدُّعاءَ من العبادَةِ وهم يَدْعُونَ الله، وعليه فمن نفى أنَّ الآخِرَةَ دارُ عَمَل فإنَّ نَفْيَه على سبيل العُمُومِ فيه نَظَرٌ ظاهِرٌ، فإنَّ الآخِرَة قد يكون فيها تكليفٌ؛ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢].

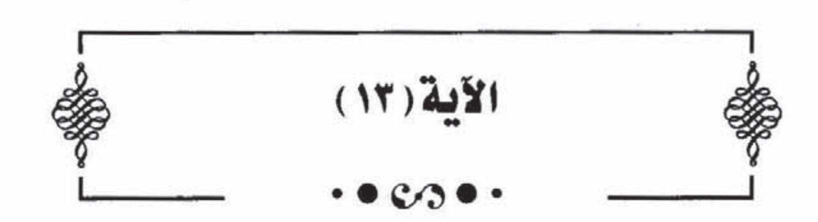
مسألة: التَّكليفُ في الآخِرَةِ هل يكونُ عليه ثوابٌ؟

الجوابُ: نعم، ولهذا أَهْلُ الفترة يُكَلَّفُون في الآخِرَة، فمن أطاع منهم دخلَ الجَنَّة ومن عصى دخل النَّار.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هؤلاء المكَذِّبينَ يُوقِنونَ بالعَمَل في الآخِرَة؛ لقولهم: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إقرارُهُم على أَنْفُسِهِم بأنَّ عَمَلَهم السَّابِقَ ليس بصالِحٍ، تُؤْخَذُ من قوله تعالى: ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾؛ لأنَّهُم كأنَّهُم بالأَوَّلِ لا يَعْمَلون صالحًا.

• • ۞ • •



الآية (١٣)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة:١٣].

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ اللهمَّ اهْدِنْا فيمن هَدَيْتَ! قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ فتهتدي بالإيمانِ والطَّاعة باختيارٍ منها].

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا ﴾ الضَّميرُ يعودُ على الله عَزَّوَجَلَّ، وأتى بضميرِ الجَمْع تعظيمًا.

فإذا قال النَّصرانيُّ: الآلِهة ثلاثَةٌ؛ ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا ﴾ وهنا للجمْع؛ هاتوا لنا دليلًا يُخرِج هذا اللَّفْظَ عن معناه، وإلا فالصَّوابُ معَنا، وأنتم أيُّها الموحِّدون على ضلالٍ، وإلا لقال الله: ولو شِئْتُ؟

فالجوابُ: أنَّ هذا من باب التَّشْبيهِ والتَّلبيسِ، وإلَّا فارْجِعْ إلى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٦٣] فيكون قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا ﴾ من باب التَّعْظيمِ، والله تعالى عظيمٌ بصفاته، فكلُّ صِفَةٍ منه من صفاته تقتضي عظمةً غيرَ ما تقتضيه الصِّفَةُ الأخرى، وباجتماعِ هذه الصِّفات يكون هناك عِظَمٌ أعْظَمُ وأَجَلُّ.

وقوله تعالى: ﴿لَآتَيْنَا﴾ هذا الجوابُ الأوَّل، و﴿لَآتَيْنَا﴾ أَعْطَيْنا؛ ولهذا نَصَبَتْ مفعولينِ: المفعولُ الأوَّل: ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾؛ والثَّاني: ﴿هُدَاهَا﴾ والهُدى بمعنى الدَّلالَة والتَّوْفيق؛ ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [فتَهْتَدي بالإيمانِ والطَّاعة] ولو شاء الله تعالى لفَعَلَ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آيات أخرى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هود:١١٨-١١٩]؛ فالله عَزَّوَجَلَّ لو شاء لجَعَلَ النَّاسَ أمَّةً واحِدَةً على الإيمان والتَّوْحيدِ والاستقامَةِ، ولكن حِكْمَةُ الله تأبى ذلك لأسبابٍ كثيرةٍ؛ منها: أنه جَلَّ وَعَلَا قال للنَّارِ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؛ فقال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ وهذا قَسَمٌ وتعَهُّدٌ من الله عَزَّوَجَلَّ للنَّارِ أن يَمْلَأَها: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ﴾، ولو كان النَّاس أمَّة واحدةً على التوحيد ما صَدَق هذا.

فإذَن: لا بدَّ أن يَصْدُق، واعلم أنه لو كان النَّاسُ أمَّةً واحدةً على التَّوْحيدِ هل يتَمَيَّز المؤمِنُ من الكافِرِ؟ لا؛ فكلُّهم واحِدٌ، فلا امتحان ولا اختبار، ولو كان النَّاسُ أمَّةً واحدةً على التَّوحيد لانْسَدَّ بابُ الأمْرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عن المُنْكَر، والسَّبَبُ أنه ليس هناك مُنْكَرٌ قد يحتاج إلى نَهْيٍ عن المُنْكَرِ، ولو كان النَّاسُ على أمَّةٍ على التَّوْحيدِ لبَطَلَ الجهادُ، أو فمَنْ نُجاهِدُ؟ لا أحد.

المُهِمُّ: أنَّ هناك حِكَمًا كثيرةً في كون الله عَزَّوَجَلَّ جَعَلَ النَّاسَ على قِسْمين؛ ولهذا قال هنا: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾: ﴿حَقَّ﴾ بمعنى وَجَبَ وثَبت، و﴿الْقَوْلُ﴾ فاعلٌ و﴿مِنِّي﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ حالٌ من القَوْلِ، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ﴾ حالَ كَوْنه صادرًا ﴿مِنِّي﴾ وهذا القولُ هو: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ﴾ الجِنِّ ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وهنا الفِعْلُ ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ مؤكَّدٌ بالنُّون وباللَّام وبالقَسَمِ المقدَّر، والتَّأْكيد هنا واجِبٌ

من النَّاحِيَة النَّحْوِيَّة؛ واجبٌ لأنه في قَسَمٍ مُثْبَتٍ مُسْتَقْبَلٍ لم يُفْصَلْ بينه وبين لامِهِ بفاصِلٍ.

وقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ﴾ هذا اسْمٌ من أسماءِ النَّار، قيل: إنَّها عَرَبِيَّة، والنُّون فيها زائدة وأنَّها من الجَهْمِ أو من التَّجَهُّم وهو الظُّلْمَة، وقيل: إنَّها اسمٌ مُعَرَّب وليس بعَرَبِيٍّ، ولكنَّه مُعَرَّب، وعلى كل الأحوالِ فالمرادُ بها النَّار، نسألُ الله العافِيَةَ!

وقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾: ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ هي الجِنُّ، و﴿وَٱلنَّاسِ﴾ بنو آدمَ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ فتُمْلأُ من هؤلاء وهؤلاء، وأيُّهما أكثر؟ الله أعلم، لكن ظاهِرُ القِسمَةِ أنَّهم سواءٌ: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

مسألة: بإجماعِ المُسْلِمينَ أنَّ كافِرَ الجِنِّ يَدْخُل النَّار، أما مُؤْمِنُ الجِنِّ؛ فهل يدخُلُ الجنَّة؟

الجوابُ: اختلف فيه العلماءُ، والصَّوابُ: أنَّهم يَدْخُلونَ الجَنَّة؛ قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام:١٣٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ [الأعراف:٣٥] أي: من الجِنِّ والإِنْسِ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف:٣٥-٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦] ثم قال: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٧] يُخاطِبُ الجِنَّ والإِنْسَ، فهذا بَيِّنٌ أيضًا على أنَّهم يدخلون الجنَّة، وكذلك قولُه تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٥٦] يدلُّ على أنَّهم يدخلونَ الجنَّة، وهذا هو الذي عليه جُمْهورُ أهْلِ العِلْم.

وقال بَعْضُهم: إنَّهم لا يدخلون الجَنَّة؛ لأنَّ الذين: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الأحقاف:٢٩-٣١] ولم يقولوا: (يُدْخِلْكم الجَنَّة)، فهذا دليل على أنَّ المؤمِنَ منهم يُجارُ من العذابِ الأليم فقط!

فيقال: إنَّ هذا استدلالٌ بنصٍّ وتَرْكُ نُصوصٍ، وما هكذا حالُ الإنسانِ الذي يُوَفِّقُ بين الأدلَّة، ثم إنَّ مقامَ هؤلاء القَوْمِ مقامُ إنذارٍ وتَخْويفٍ: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ دون مُبَشِّرينَ، فهو مقامُ إنذارٍ وتخويفٍ، وهم إذا استقاموا وخافوا فإنَّه لا شَكَّ أنَّهُم يدخلونَ الجَنَّة؛ لأنَّ من أُجيرَ من العذابِ الأَليمِ من المُكَلَّفينَ فلا بدَّ أن يدخلَ الجَنَّة؛ إذ إنَّ مآل الوَرَى إلى الجنَّة أو النَّار.

وهذا القول هو الحَقُّ: أنَّ مُؤْمِنَهم يدخُلُ الجَنَّة وكافِرَهُم يدخُلُ النَّار؛ والثاني: أن كافِرَهُم يدخل النَّارَ بالإجماعِ، وليس فيه خلافٌ؛ لأنه نَصٌّ بالقُرآنِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ مشيئةِ الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تمامُ سلطانِهِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأٓتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ حِكْمَته؛ حيث لم يُؤتِ كُلَّ نَفْسٍ هداها؛ وقد سبق لنا شيءٌ من الحِكَمِ في اختلافِ النَّاسِ إلى مُؤْمِنٍ وكافِرٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الرَّدُّ على القَدَرِيَّة، والقَدَرِيَّةُ هم الذين يقولون: إنَّ الإنسانَ مُسْتَقِلٌّ بعَمَلِه، ليس لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيه تقديرٌ ولا خَلْقٌ، يشاء لِنَفْسِه ويَفْعَلُ بنفسه،

وليس لله تَعَلُّقٌ بفعله، هؤلاء هم القَدَرِيَّة، فَقَوْلُ الله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا﴾ يَرُدُّ عليه.

ولكن هل في الآيَةِ دليلٌ لَمِذْهَبِ الجَبْرِيَّة؟

الجوابُ: ظاهِرُها؛ إلَّا أنَّ الآياتِ الأخرى تدلُّ على أنه لا حُجَّة فيها لهم؛ لأنَّ الله تعالى أعطى الإنسانَ قُدْرَةً واختيارًا، ونحن -مَعْشَرَ أَهْلِ السُّنَّة- لا نَأْخُذُ ببعض الكتاب ونَدَعُ بعضًا، بل نأخُذُ بالكتابِ كلِّه، فنؤمِنُ بأنَّ مَشِيئَةَ الله فَوْقَ كُلِّ شيء ونؤمِنُ بأنَّ للإنسانِ مَشيئةً وإرادَةً وقُدْرَةً على العمل، وأنَّ الإنسانَ هو الفاعل وليس الله تعالى هو الفاعِلَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ كلامِ الله؛ أنَّ الله يتكلَّم؛ لقوله تعالى: ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن كلامه تعالى بِحَرْفٍ؛ لأن قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ حروفٌ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الرَّدُّ على من زعم أن كلامَ الله هو المعنى القائِمُ بالنَّفْس؛ إذ لو كان كذلك لقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ولكن أَرَدْتُ أن أَمْلأَ؛ ولم يَقُلْ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات النَّار؛ لقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا أوفَى المعاهِدِينَ؛ أنه وعَد أنَّ النَّار يَمْلَؤُها وفاءً لها بها وعدها؛ ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ الجِنَّ يدخلون النَّار، تُؤخَذُ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وهل يدخلون الجَنَّة؟

الجوابُ: تقدَّم أنَّ في ذلك خلافًا، وأنَّ الصَّواب أنَّهُم يَدْخُلونها وبَيَّنَّا الأدِلَّة على ذلك من القرآن.

• ● ۞ ● •



الآية (١٤)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٤].

•••

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وتقول لهم الخَزَنَة إذا دخلوها: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ﴾] وهل يُوافِقُ ظاهِرَ الآية؟ فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ هل يناسِبُ أن يكون القائِلُ الملائِكَةَ في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾؟

الجوابُ: لا؛ إذن القائِلُ هو الله؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ فالصَّوابُ: أنَّ هذا القَوْلَ من قَوْلِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يقولُهُ لهم تقريعًا وتوبيخًا وتنديمًا أيضًا؛ يقول: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ﴾ الأمْرُ هنا ليس للإكرامِ ولا لِمُجَرَّدِ الأَمْرِ، ولكن للتَّوْبيخِ والتَّقريعِ والإهانَةِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَذُوقُواْ﴾ العذابَ] أفادنا بهذا التَّقْديرِ أنَّ مفعول (ذوقوا) مفعوله محذوفٌ تقديرُهُ: العذاب، ويُحْتَمَلُ ألَّا يكون لها مفعولٌ، والمعنى كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] فيكون المرادُ مُجَرَّدَ التَّوْبيخِ والإهانَةِ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ أي: بتَرْكِكُمُ الإيمانَ به] والعَمَلَ له وأفادنا بقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِتَرْكِكُم] أن (ما) مصدريَّة، وأنَّ ﴿نَسِيتُمْ﴾

بمعنى تَرَكْتُمْ، وهو كذلك؛ فإن (ما) مصدريَّة؛ أي: بنسيان، والنِّسيانُ هنا بمعنى التَّرْكِ، وليس النِّسيانُ الذي هو ذهولُ القَلْبِ عن مَعْلومٍ؛ لأنَّ النِّسْيانَ المَعْروفَ هو ذُهُولُ القلب عن معلومٍ، وهذا لا يُعاقَبُ عليه الإنسانُ، ويُطْلَقُ النِّسْيانُ على التَّرْك، وهو الذي يعاقَبُ عليه، والدَّليلُ على إطلاق النِّسْيانِ على التَّرْك قوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧].

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ بمعنى تَرَكْناكُم، وليس معناها ذهولَ القَلْبِ عن معلوم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] النِّسْيانُ المُثْبَتُ لله هو التَّرْكُ، والنِّسْيانُ المنفِيُّ عنه هو الذُّهولُ عن الشَّيْء، وأمَّا الإنسانُ فإنَّه يَثْبُتُ له.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ تركتم اللِّقاءَ، والمراد تَرَكْتُمُ العَمَلَ له والإيمانَ به.

و قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ تركناكم في العَذابِ] نسألُ الله العافِيَةَ! تركهم الله عَزَّوَجَلَّ وما نَسِيَهم، فلا يزال يَعْلَمُ بهم جَلَّوَعَلَا، ولكنَّه تَرَكَهُم، وقال لهم بعد المراجعاتِ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨] فهل يتكلَّمونَ بعد ذلك بِرَفْع العذابِ؟

أبدًا لأنَّ في الآخِـرَة لا يَقْـدِرُونَ أن يُخالِفوا؛ لأنه لما قـال: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ انقطع رجاؤُهم من كل رجاء -والعياذ بالله- وأَيِسُوا من كلِّ خير.

وقـوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ﴾ تركنـاكُمْ في العذابِ ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ الدَّائِمَ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكُفْرِ والتَّكْذيبِ] هذا إقرارٌ للتَّأْكيدِ وبيانِ أنَّ ما ذاقـوه لا يُمْكِنُ أن يزولَ عنـهم مع أنَّهم قالوا فيما سبق:

ارْجِعْنا نَعْمَلْ صالحًا، فقال: ليس هناك رُجوعٌ: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ يعني العذابَ الدَّائِمَ، وهذا من باب إضافَةِ الشَّيْء إلى مَوْعِدِهِ أو على تقدير (في) للظَّرفيَّةِ؛ يعني: عذاب في الخُلْد؛ وعلى كلِّ حالٍ: هو عذاب دائِمٌ.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: (ما) هنا يُحْتَملُ أن تكون اسمًا موصولًا؛ أي: بالذي كنتم في الدُّنْيا تَعْمَلُونه، ويُحْتَمَل أن تكون مصدريَّة، ولكنْ ظاهِرُ تفسيرِ المُفَسِّر أنها اسمٌ موصولٌ، قال: [﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكُفْرِ والتَّكذيب].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ أهلَ النَّار يُوَبَّخونَ بتركِهم العَمَلَ للنَّجاةِ منها؛ لقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾.

ويتفرَّعُ على هذه الفائِدَة: زيادَةُ التَّعذيب: التَّعذيب القلبي؛ لأنَّ الإنسانَ إذا وُبِّخَ على عملٍ عَمِلَه فإنَّه يزدادُ حَسْرةً وندمًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إطلاقُ النِّسيانِ على التَّرْكِ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الأفعال الاختياريَّة لله؛ لقوله تعالى: ﴿نَسِينَٰكُمْ﴾ يعني: تَرْكناكُم، وهذا يدلُّ على أنه تعالى يترُكُ من شاء ويُقْبِل على من شاءَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن عذابَ النَّارِ دائِمٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ وهذا هو الذي عليه أهل السُّنَّة والجماعَةِ: أنَّ عذابَ النَّارِ أَبَديٌّ سَرْمَدِيٌّ؛ كما أنَّ نعيمَ الجَنَّة أبديٌّ سرمديٌّ، لكنْ ذَكَرَ ابنُ القيم[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه يُخْتَلَفُ في أبديَّةِ النَّار على قَوْلَيْنِ، وأمَّا عذابُها فهو أبديٌّ ما دامَتِ النَّارُ موجودةً، فلا يَخْرُجُ منها أهْلُها

(١) انظر: شفاء العليل (ص:٢٥٤).

ما دامت موجودةً أبدًا؛ ولكنَّ الكلامَ في أبَدِيَّتِها هي، فهل هي مُؤَبَّدة أو مُؤَمَّدةٌ؟

والصَّواب: أنَّها مُؤَبَّدَةٌ، وقد ذكر الله تعالى ذلك في ثلاثِ آياتٍ من القرآن في سورة النِّساءِ، وفي سورة الأحزابِ، وفي سورة الجِنِّ.

ففي سورة النساءِ قولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩].

وفي سورة الأحزاب قَوْلُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٢٣].

وفي سورة الجِنِّ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

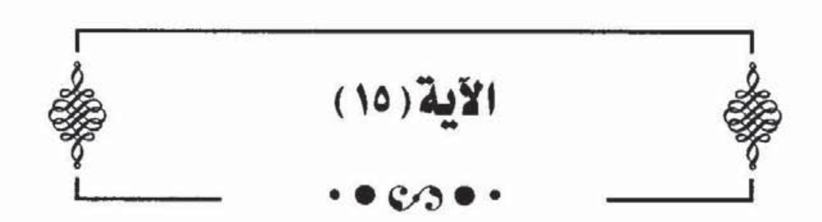
فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: إنَّ التَّأبيد هنا لخُلُودِهِم؟

قُلْنَا: لا تأبيدَ لخلودٍ إلا والمكانُ خالِدٌ فيه؛ فإذا تأبَّدَ الخلودُ فإنَّما مكانُ الخُلْدِ يكون مُؤبَّدًا بالضَّرورةِ، ولهذا الصَّوابُ المقطوعُ به: أنَّ النَّار أَبَدِيَّةٌ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يَظْلِمُ أحدًا؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الجَزاء من جِنْس العَمَل، فكما أنَّهم أَفْنَوْا حياتَهم في مَعْصِيَة الله فإنَّ حياتَهم الآخِرَة أيضًا ستكونُ في عذابِ الله.

• • ۞ • •



الآية (١٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴾ [السجدة:١٥].

•●෴●•

ثم بيَّنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنِ المؤمِنُ حقًّا، فقال: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ﴾ أداة حَصْرٍ، حَصَرَتِ الإيمانَ في الذين إذا ذُكِّروا بآياتِ ربِّهم خَرُّوا سُجَّدًا.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القرآنِ] وعلى هذا فهي الآياتُ الشَّرْعيَّة، والصَّواب أنها عامَّة حتى الآيات الكونِيَّة كمن ذُكِّرَ بما يفعَلُه الله عَزَّوَجَلَّ في المكَذِّبين والمُجْرِمين، فإنَّ ذلك داخِلٌ في الآية ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القرآن] يقتضي أنَّ هذا القَوْلَ خاصٌّ بهذا الأُمَّة ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ لأنَّهُم أَهْلُ القرآنِ، ولكِنَّ الأَوْلى أن تُؤْخَذ على سبيل العُمُوم حتى فيما سبق، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ [الإسراء:١٠٧].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا ﴾: ﴿ٱلَّذِينَ ﴾ فاعِلُ ﴿يُؤْمِنُ﴾، يعني (لا يُؤْمِنُ إلا الذين...)، والمرادُ الإيمانُ الكامِلُ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا﴾ وُعِظُوا ﴿بِهَا﴾] أي جُعِلَت مَوْعِظَةً لهم وبُيِّنَتْ لهم الآياتُ، فإذا وُعِظُوا بها ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾: ﴿خَرُّوا﴾ جوابُ ﴿إِذَا﴾.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ الخُرورُ يكون من أعلى إلى أسفل، ومنه خرورُ الماءِ من السَّاقِيَة من فوق إلى تحت، ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ أي: من القيامِ ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ حالَ السُّجُودِ ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾.

هذه الآية أورد عليها بَعْضُ العلماء إشكالًا، وقال: هل لِكُلِّ من ذُكِّرَ بآياتِ الله أن يَسْجُد؟ فإذا قُرِئَ عليه آيةٌ سَجَدَ، أو إذا ما وعَظْتَهُ بموعظة سَجَدَ؟

والجوابُ عن هذه الآيَةِ: قال بعضهم: المرادُ خَرُّوا سُجَّدًا في مَوْضِعِ السُّجُود؛ يعني: خرُّوا سُجَّدًا؛ إذا مَرَّت بهم آياتُ سَجْدَة سجدوا، أَمَّا إذا ذُكِّرُوا بآياتِ رَبِّهم بدون أن تَمُرَّ بهم آياتُ سَجْدَة فإنَّهم لا يسجدون.

ولكنَّ الصَّوابَ خلافُ ذلك؛ فالصَّوابُ أنَّ المعنى: الذين إذا ذُكِّروا بها انقادوا لها وخَضَعُوا لها، ولا يَلْزَمُ من ذلك أن يكون السُّجُودُ مباشرًا للتَّذْكيرِ؛ فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾ يعني: حتى في المُسْتَقبل، فلا يلزم أن يكون جوابُ الشَّرْطِ مباشِرًا له.

وما يقتضي التَّرْتيب للحُرُوفِ أو التَّركيب قد يُرادُ به التَّرتيبُ في مَوْضِعِه وفي كُلِّ شيء بِحَسَبه؛ ولهذا لو قُلْتَ: تَزَوَّجَ زَيْدٌ فوُلِدَ له، الفاءُ للتَّرتيبِ والتَّعْقيب، ومن المعلومِ أنه لا يُولَدُ له فَوْرَ عَقْدِ النِّكاحِ له؛ فنقول: الفاءُ للتَّرتيبِ والتَّعْقيبِ، وتَعْقِيبُ كُلِّ شيء بِحَسَبِه، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ وهل المَطَرُ إذا نزل وصار الصَّباحُ فإذا هي مُخْضَرَّةٌ؟

الجوابُ: لا، ولكنْ بعد مُـدَّة تَخْضَرُّ، وبعد مُدَّة يُوْلَدُ لهذا المتَـزَوِّج؛ فكذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟﴾ لا يلزم من ذلك أن يباشِرُوا فبمجرَّد التَّذْكير يَخِرُّونَ، بل المعنى أنَّهُم يَلْتَزِمونَ بذلك فإذا ذُكِّروا بها التَزَموا بذلك بالسَّمْعِ والطَّاعَة فسجدوا في مَوْضِعِ السُّجودِ ولم يوجد منهم استكبارٌ، وعلى هذا فلا إشكالَ في الآية.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾: ﴿سُجَّدًا﴾ حالٌ من فاعِلِ ﴿خَرُّوا۟﴾. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسَبَّحُوا۟﴾ معطـوفٌ على: ﴿خَرُّوا۟﴾ ومعنى: سبَّحوا أي نَزَّهوا، فالمفعـولُ محذوفٌ تقديرُهُ وسبحوا ربَّهُم؛ أي: سَبَّحُوا الله.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُتَلَبِّسينَ ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾] أفادنا المُفَسِّر بأنَّ الباءَ في قوله تعالى: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أنَّ الباء للمُلابَسَةِ؛ يعني: معناها أنَّ التَّصْديقَ مَقْرونٌ بالحَمْدِ، ولو أنَّه ذهب إلى أنَّ الباء للمصاحَبَة: وسَبَّحوا تسبيحًا مُصاحِبًا بِحَمْد ربِّهم؛ لكان أَوْلى.

وقوله: ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي قالوا: سبحانَ الله وبِحَمْدِهِ] ويُحْتَمَل ألَّا يكونَ المرادُ بالتَّسبيحِ والحَمْد: تسْبيحَ اللِّسانِ وحَمْدَه، وأنَّ المرادَ نَزَّهُوهُ بِقُلُوبهم وحَمِدُوه بألْسِنَـتِهم، فنَزَّهُوه بقُلُوبِهِم عمَّا لا يليـقُ به وحَمِدُوه بأَلْسِنَتِهِم بما يستحقُّه.

فقوله: ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يعني: يَسْجُدون لله ويُسَبِّحونَه حالَ السُّجُود؛ ولهذا مما يُشْرَعُ في السُّجود أن تقول: «سُبْحانَكَ اللهمَّ ربَّنَا وَبِحَمْدِكَ»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ الجملةُ حالٌ، يعني: والحالُ أنَّهُم: [﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإيمان والطَّاعَةِ] بل ينقادون ويَخْضَعون.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء في الركوع، رقم (٧٩٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، (٤٨٤)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن للإيمانِ علاماتٍ؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟﴾ إلى آخره.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن من ادَّعى الإيمانَ بدون علامَةٍ فدعواهُمْ باطِلَةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الاستدلالُ بالأَحْوال والقرائِنِ؛ لأنَّ الله ذَكَرَ علامةً على الإيمان في هذه الأفعال، والإيمانُ محَلُّه القَلْبُ فلا يُعْلَمُ، لكنْ هذه الأعمالُ قرائِنُ وأحوالٌ تدُلُّ على وجودِ ما هي دليلٌ عليه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الاستدلالُ بالقرائِنِ والأَحْوال على حقيقة الشَّيْء، وهذه مُفيدَةٌ غايةَ الفائدةِ للقُضاةِ.

وقد استدلَّ بالقرائِنِ أحَدُ الأنبياءِ الكِرامِ، وهو سليمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

واستدلَّ بالقرائِنِ أيضًا النَّبِيُّ ﷺ في قِصَّةِ مالِ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ لما سأل عنه بعد غزوةِ خَيْبر، قالوا: إنَّه أَفْنَتْه الحروب، فقال الرَّسُولُ ﷺ: «**المالُ كثيرٌ والعَهْدُ قَريبٌ**»(١) يعني لا يمكن أن تُفْنِيَه، فحُيَيُّ بنُ أخطبَ من أغنياءِ بني النَّضيرِ وإن ذهب مالُه؛ ثم دفعه إلى الزُّبَيرِ بْنِ العوَّام وقال له: فمَسَّهُ بعذابٍ، وعند ضَرْبِهِ قال: أنا سأدُلُّكم على شيءٍ كان حُيَيٌّ يختلفُ إليه كثيرًا، فدلَّهم على خَرِبَةٍ، فإذا المال مدفونٌ فيها، فاستدلَّ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالقرائِنِ على وجود الشَّيْء.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن للإيمان تمامًا ونُقْصانًا؛ لأنَّ هذه الآية لا شَكَّ أنها في كمالِ الإيمانِ.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٥١٩٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ من علامَةِ المؤمِنِ انقيادَهُ للمواعِظِ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الإنسانَ المؤمِنَ قد يطرأ عليه الجَهْلُ والنِّسْيانُ، تُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ فقد يَنْسَوْن أو يَجْهَلُون.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: فضيلة السُّجُود؛ لقوله تعالى: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ وقد ثبت في الحديث: «**إِنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**»[1]، وأَمَرَ النبيُّ ﷺ بالاجتهادِ في الدُّعاءِ في حالِ السُّجُود، وأخبر أنه أَحْرى بالإجابَةِ[2].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: الجَمْعُ بين انتفاءِ العَيْب والنَّقْص عن الله مع ثبوتِ الكمالِ له؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ففي التَّسْبيحِ تَنْزيهٌ، وفي الحَمْد كمالٌ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ من صفات المؤمِن التَّواضُعَ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ فالتَّواضُعُ للحَقِّ وللخَلْقِ، ولكن يَجِبُ أن نَعْرِفَ الفَرْق بين التَّواضُع والذُّلِّ؛ فالمُؤْمِنُ لا يكون ذليلًا، ولكنَّه يكون متواضِعًا؛ فإذا تبيَّنَ له الحَقُّ انقادَ له، فهذا تواضُعٌ للحَقِّ، وإذا عامَل الخَلْقَ عامَلَهُم بالتَّواضُع، لكن لا يُذِلُّ نَفْسَه، فهو لا يستكْبِرُ على النَّاسِ ولا يَغْمِطُ النَّاسَ حَقَّهُم، ولكنَّه لا يَذِلُّ لهم.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ التَّعَصُّبَ في التَّقْليد ليس من طريقِ المؤمنينَ؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ويوجد في المُتَعَصِّبينَ في التَّقْليد من يَسْتَكْبِرُ عن الحَقِّ؛

---

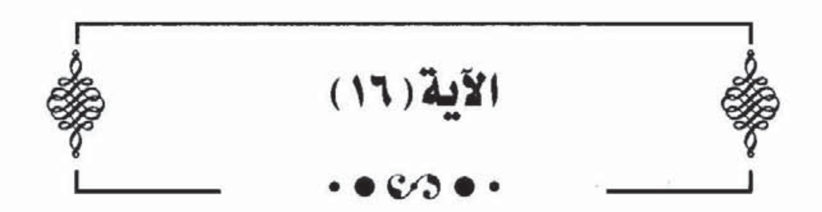
(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، رقم (٤٧٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إذا عُـرِضَ عليه أَبى وضَرَب بقول فلان كذا وكذا من المقلَّدينَ، وهـذا نوعٌ من الاستكبارِ عن الحقِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: ذَمُّ من أَصَرَّ على رأيه بباطِلٍ؛ تُؤخَذُ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾، فمن النَّاسِ من إذا قال قولًا لا يُمْكِنُ أن يتنازَلَ عنه ولو بان الحَقُّ، وهذا نَوْعٌ من الاستكبار، والواجِبُ أن تَعْرِفَ نَفْسَك وأنك بَشَرٌ، وأَنَّه يفوتك العِلْمُ إمَّا نسيانًا وإمَّا جَهلًا، ويفوتك أيضًا: الوصولُ إلى الغايَةِ، فقد يكون عندك عِلْمٌ، لكن يَنْقُصُك التَّفْكيرُ والتَّأَمُّلُ والجَمْعُ بين الأدِلَّـة وما أشبه ذلك، فتحتاجُ إلى أن تَتيقَّظَ.

• ● ۞ ● •



الآية (١٦)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة:١٦].

••••••

ثم بيَّنَ الله تعالى من صفاتهم ما بَيَّن بقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ تَرْتَفِع] وتَبْتَعِد أيضًا لأنَّ المجافاةَ الإبعادُ، ومنه: «كان النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجَافِي عَضُدَيْهِ فِي السُّجُودِ»[1] يعني: يُبْعِدُهُما عن جَنْبَيْه، فمعناه إذن: الإبعادُ والارْتِفاعُ، والارْتِفاعُ يَسْتَلْزِمُ البُعْدَ.

وقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ المضاجِعُ جَمْعُ مَضْجَعٍ، وهو مكان الاضْطِجاعِ والاضطجاع النَّوْمُ؛ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَوَاضِعُ الِاضْطِجَاعِ بِفُرُشِهَا لِصَلَاتِهِمْ بِاللَّيْلِ تَهَجُّدًا] فلا ينامونَ؛ أي: تتجافى جنوبُهُم عن المضاجِعِ فلا ينامون، ولكنَّ هذا مُقَيَّدٌ بما جاءت به السُّنَّة: أنَّهُم يتهَجَّدون ليس كلَّ اللَّيلِ، ولكِنِ الزَّمَنَ المَشْروعَ التهَجُّدُ فيه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا﴾ من عِقَابِهِ ﴿وَطَمَعًا﴾ في رَحْمَتِه].

يَدْعُون هذه جُمْلَةٌ حاليَّة من فاعِلِ ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ أو من المضافِ إليه بـ﴿جُنُوبُهُمْ﴾

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٠)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب صفة السجود، رقم (٩٠٠)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب السجود، رقم (٨٨٦)، من حديث أحمر بن جزء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يعني حالَ كَوْنِهِم يَدْعُونَ ربَّهُم، فيَدْعُونَه دُعاءَ مَسْأَلةٍ وعبادَةٍ.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ خوفًا من عقابِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وطَمَعًا في رَحْمَته؛ لكِنَّ الحامِلَ على الخَوْفِ والطَّمَع أنَّهُم إذا نظروا إلى تَقْصِيرهم وعَظَمَةِ الله وشِدَّة عقابه غلب عليهم جانِبُ الخَوْفِ، وإذا نظروا إلى سَعَةِ رَحْمَةِ الله وعَفْوِه، وأنَّهُم قاموا بما يَنْبَغِي أن يقوموا به غَلَبَ عليهم جانِبُ الطَّمَع، فهم يسيرون بِجَناحَيْنِ؛ جَناحَيِ الخَيْرِ والطَّمَعِ، ولكن أيُّها ينبغي أن يُغلَّبَ؟

الجوابُ: فيه خلاف؛ قال الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: ينبغي أن يكون خَوْفُه ورجاؤُه واحدًا، فأيُّهما غَلَب هَلَكَ صاحِبُه؛ ولأنَّه إن غَلَّبَ جانِبَ الخَوْفِ قَنِطَ من رحمة الله وإن غلَّب جانِبَ الرَّجاءِ أَمِنَ مَكْرَ الله، ولكن يكونُ بينَ بينَ.

وقيل: الصَّحيحُ يُغَلِّبُ جانِبَ الخَوْفِ، والمريضُ يُغَلِّب جانِبَ الطَّمَع، فعند الموتِ يُغَلِّبُ جانب الطَّمَع والرَّجاء، وفي حال الصِّحَّةِ يُغَلِّب جانِبَ الخَوْف. وقيل: إنْ فَعَلَ الطَّاعَةِ فَلْيُغَلِّبْ جانِبَ الرَّجاء، وإن هَمَّ بالمَعْصِيَة أو عَمِلَها فَلْيُغَلِّبْ جانِبَ الخَوْفِ.

وقوله رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يتصَدَّقونَ].

(مِن) هل هي لبيانِ الجِنس أو أنها للتَّبعيضِ؛ يعني بعضَ ما رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ؟

الجوابُ: إذا قُلْتَ إنَّها للتَّبعيضِ، صار من يَبْذُلُ كلَّ مالِهِ تقرُّبًا إلى الله صار مذمومًا، لو قُلْتَ: إنَّها لبيانِ الجِنْس وأنَّهُم يُنْفِقون ممَّا رَزَقْناهم، فإنَّه لا يَقْتَضي أن يكون مَنْ بَذَلَ مالَه كُلَّه مذمومًا؛ يعني: المرادُ بيانُ الجِنْس، فيَشْمَلُ القَليلَ والكثيرَ.

---

(١) انظر: الاختيارات لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٣٥٩).

وهذه المسألة اختلف فيها العُلماءُ؛ هل يَبْذُلُ الإنسانُ كُلَّ مالِهِ في طاعَةِ الله وفي سبيل الله، أو يَقْتَصِرُ على بعضه؟

والصَّواب: أن ذلك يرجِعُ إلى حالِ الشَّخْصِ، وإلى الأسبابِ التي بها يَدْفَع الضَّرورَة عن نفسه وأَهْلِه، فإن كان الإنسانُ ضعيفَ التَّوَكُّلِ أو ضعيفَ القُدْرَة على التكسُّبِ، فالأَفْضَلُ أن يُنْفِقَ شيئًا من مالِهِ، وإن كان الأَمْرُ بالعكس فله أن يتصدَّقَ بِجَميعِ مالِهِ؛ كما فعل أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]، أما أبو لُبابَةَ لَمَّا نَذَرَ أن يَنْخَلِعَ من ماله صدقَةً لله ورَسُولِهِ، قال له الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ؛ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**»[2] فَجَعَلَ من الخير له أن يُمْسِكَ بَعْضَ المالِ.

وقوله تعالى: ﴿يُنفِقُونَ﴾ الإنفاقُ يعني: البَذْل.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فَضيلَةُ قيام اللَّيلِ؛ لأنَّ الله تعالى ذكره في سياقِ المَدْح، فقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ لكنْ هذا الإطلاقُ مقيَّدٌ بما جاء في السُّنَّة؛ يعني بألَّا يكون جميعَ الليل، بل تتجافى جُنُوبُهم عن المضاجِعِ في حدود ما جاءت به السُّنَّة، وبهذا نَعْرِفُ خطَأَ ما يوجد في كُتُبِ الوَعْظِ من أنَّ فُلانًا صلَّى صلاةَ الفَجْرِ بِوُضوءِ العِشاءِ أَرْبَعينَ سَنَةً! يعني: أنَّه ما نام اللَّيلَ بل يقوم اللَّيلَ، وهذا خطأٌ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الزكاة، باب الرخصة في ذلك؛ أي أن يخرج الرجل من ماله، رقم (١٦٧٨)، والترمذي: كتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كليهما، رقم (٣٦٧٥)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب إذا تصدق أو أوقف بعض ماله أو بعض رقيقه أو دوابه فهو جائز، رقم (٢٧٥٧)، من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وليس فيه ذكر أبي لبابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأما خبر أبي لبابة فأخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٥٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب فيمن نذر أن يتصدق بماله، رقم (٣٣١٩)، بلفظ: «**يجزئ عنك الثلث**».

وهذا تبرَّأ منه الرَّسُولُ ﷺ؛ فقالت الجماعَةُ الذين قال أحَدُهُم: أنا أقوم اللَّيلَ ولا أنام، قال: «**أَمَّا أَنَا فَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[(١)].

لكِنْ مُشْكِلُ هؤلاءِ الوُعَّاظ الذين يَكْتبون هذه الكُتُبَ يريدون أن يُرَغِّبوا النَّاسَ لكن يُرَغِّبونهم في الباطِلِ، ولو أنَّ النَّاس اقْتَصَر لهم بما صَحَّ عن رَسُولِ الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من التَّبْشيرِ والإنْذار ومِنَ الأعمالِ الصَّالِحَة لاستقاموا، لكن عندما أسْمَعُ هذا رَجُل أثنى عليه أنه أربعينَ سنةً صلَّى الفَجْرَ بوضوء العشاء! أقول: أينَ أنا من هذا؟ فسأبقى على ما أنا عليه وأصلي سُنَّةَ العِشاء ركعتينِ والوِتْر أقَلُّه ركعةٌ، فأُصَلِّي ركعة، ولا يَجِبُ إلا قراءةُ الفاتِحَة فأقتصر على الفاتِحَة، ولا يجب (سبحان ربي الأَعْلى) إلا مرَّة في السُّجُود، و(سبحان ربي العظيم) مَرَّة في الرُّكوع، فأقتصر على مَرَّة في الرُّكوع وفي السُّجود، ويمشي، لكن لو أنَّ النَّاسَ بُيِّنَتْ لهم السُّنَّةُ حقًّا لكفى بها واعِظًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضيلَةُ الدُّعاء؛ لقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾.

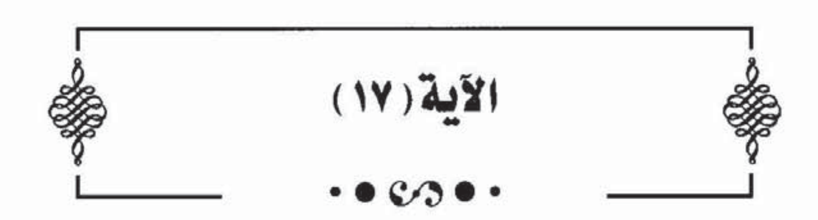
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه ينبغي للدَّاعي وللعامِلِ العابد: أن يكون دعاؤُهُ وعبادتُهُ بين الخَوْفِ والرَّجاءِ؛ لقوله تعالى: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فضيلةُ الإنفاقِ مما رَزَقَك الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ على حَسَب التَّفْصيلِ الذي ذكرناه في التَّفسيرِ.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٥٠٦٣)، ومسلم: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، رقم (١٤٠١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآية (١٧)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

•●○●•

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ أيَّ نَفْسٍ تكونُ؛ لا مَلَكٌ مُقَرَّب ولا نَبِيٌّ مُرْسَل.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ وهذا نَفْيٌ لعِلْم الحقيقةِ لا لِعِلْم المعنى، فإنَّ المعنى معلومٌ فيما أخفى الله من قُرَّة الأَعْيُنِ، لكنْ حقيقَةُ ذلك الشَّيْءِ مجهولة؛ ولهذا قال ابنُ عبَّاسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَيْسَ في الدُّنْيا مِمَّا في الجَنَّة إِلَّا الأَسْماءُ»[1] فنعلم أن في الجَنَّة نخلًا ورمَّانًا وفاكهةً ولبنًا وعَسلًا وماءً وخَمْرًا وطيرًا، وما أشبه ذلك، فنعلَمُ هذا من المعنى، لكنْ حَقيقَةُ ذلك الشَّيْءِ مَجْهُولَةٌ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾ ما أُخْفِيَ لهم؛ أي: حقيقة ما أُخْفِيَ، وليس معنى ما أُخْفِيَ، فالمعنى معلومٌ.

وقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ ما تَقَرُّ به أَعْيُنُهم] قَرَّتْ عينُه بمعنى: جَمُدَت، وقَرَّت عَيْنُه بمعنى: سَكَنَت، فعلى الأوَّل تكون من القُرَّةِ والبَرْدِ؛ ولهذا يقال:

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٦٦)، وأبو نعيم في صفة الجنة رقم (١٢٤).

إنَّ دَمْعَةَ السُّرور بارِدَة، ودَمْعَة الحُزْن حارَّة؛ ولهذا قال: قَرَّتْ عَيْنُه إذا سُرَّتْ، أما إذا كان هنا القَرَارُ وهي أنها لا تَلْتَفِت إلى سوى ما هي تَنْظُر إليه؛ يعني: أنَّ عُيُونهم قارَّةٌ لا تَلْتَفِتُ إلى سوى ما هي عليه، وكلا المعنيين صحيحٌ؛ فإن معنى قَرَّت عينُه؛ أي: بَرُدَتْ فلم يَلْحَقْها حرارَةُ الحُزْنِ، ومعنى قَرَّتْ عينُكَ؛ أي: سَكَنَت، فلا تنظُرُ إلى شيء سوى ما هي عليه، وهذا يكون معناه غايَةَ الأُمْنِيَة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قراءةٍ بسكونِ الياءِ؛ مضارِعٌ] فـ﴿أُخْفِىَ﴾ فِعْلٌ ماضٍ، و(أُخْفِيْ) فِعْلٌ مضارعٌ؛ و(أُخْفِيْ) يعني: أُخْفِيْ أنا، (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيْ لَهُمْ) ما أُخْفِيْ لهم أَنا، أي: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، أمَّا ﴿مَّآ أُخْفِىَ﴾ لهم فهو فِعْلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمَجْهولِ، وفاعله مستَتِرٌ جوازًا، وإذا كانت (أُخْفِيْ) بالسكونِ فهي فعل مضارعٌ، وفاعل مُسْتَتِرٌ وجوبًا تقديره أنا.

والمعنى على كلتا القراءتين صحيحٌ؛ فالله هو الذي أخفاه حتى على البِنَاء للمجهولِ: ﴿مَّآ أُخْفِىَ﴾ فإنَّ المُخْفِيَ هو الله: ﴿مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ جزاءً: مفعولٌ من أجله، ولكن هل عامِلُ المفعول من أجله: ﴿أُخْفِىَ﴾ أو: ﴿قُرَّةِ﴾؟

الظَّاهِرُ: أنَّها ﴿قُرَّةِ﴾ يعني: قَرَّتْ أَعْيُنُهم جزاءً، وليس المعنى أُخْفِيَ لهم جزاءً؛ لأنه قد يقال: إنَّ الإظهارَ أَبْلَغُ في الجزاءِ، لكنَّها من قُرَّةِ أعينٍ جَزَاءً.

وقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي بالذي كانوا يَعْمَلونه في الدُّنْيا من طاعَةِ الله.

فإن قلتَ: هذا يدلُّ على أنَّهُم يُجازَوْنَ بعمل، وقد ثبت عن النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه قال: «**لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ**» قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ الله؟ قال: «**وَلَا أَنَا،**

إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ»[١] فما هو الجَمْعُ بين هذا الحديث وبين هذه الآية وأمثالِها؟

قال أهلُ العِلْمِ: إنَّ الجَمْعَ بينهما اختلافٌ في معنى الباء، فالباءُ التي للسَّبَبِيَّة هي الموجودة في مثل هذه الآيَةِ ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ﴾ أي بِسَبَبِ ما كانوا يعملونَ، والباء التي للعِوَضِ هي المذكورَةُ في قوله: «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» أي: عِوَضًا عن عمله؛ لأنَّنا لو أَرَدْنا المعاوضَةَ والمُقاصَّةَ لَظَهر العامِلُ مغبونًا مطلوبًا، ولكان العامِلُ مهما عَمِلَ من الصَّالحاتِ فهو مطلوبٌ، ونِعْمَةٌ واحدة من نِعَمِ الله عليك تَسْتَوْعِبُ جميع الأعمالِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هذه الآيَةِ الدَّليلُ على عِظَمِ نَعيمِ الجَنَّة، يُؤخَذُ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ لأنَّه لا شكَّ أنَّ الإبهامَ يدلُّ على التَّفْخِيم، كما قلنا في التَّفْسيرِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ في الجنَّة من قُرَّةِ العَيْنِ في المأكولِ والملبوسِ والمنْكوحِ والمسْكَنِ ما لا يَخْطُر على البالِ؛ لأن كلَّ هذه الأَرْبَعَة تَقَرُّ بها العَيْنُ؛ وقيل:

وَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وَتَقَرَّ عَيْنِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ[٢]

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فَضْلُ الله عَزَّوَجَلَّ على العبادِ المؤمنينَ، فَضْلُه السَّابِقُ واللاحِقُ، فالسَّابِقُ أنْ وفَّقَهُم للإيمان والعَمَلِ الصَّالح، واللَّاحِقُ أنْ جَعَلَ هذا الجزاءَ على عَمَلِه؛

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) البيت لمَيْسون بنت بَحْدل، انظر: الكتاب لسيبويه (٣/ ٤٥)، وخزانة الأدب (٨/ ٥٠٣).

قال تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ كأنَّ هذه النِّعَم التي في الجَنَّة جزاءٌ على عَمَلٍ لهم، بل هي حقيقة العَمَل لهم، لكن فيه: أنَّ الفَضْل من الله عَزَّوَجَلَّ عليهم كأنَّه فَضْلٌ منهم على أنْفُسِهِم؛ لقوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ مِثْل قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ فإحسانُ العَمَلِ بإحسانِ الجزاء، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾ إذ يَمُنُّ عليهم بالسَّعْيِ الحميدِ، ثم يَشْكُرُهم عليه، يَمُنُّ عليهم هنا بالتَّوْفيقِ للهدايَةِ، ثم يقول: أُجازيكُم على عَمَلِكم، وهذا لا شَكَّ أنه من تمامِ نِعْمَة الله عَزَّوَجَلَّ.

• • ۞ • •



الآية (١٨)

• ● ○ ● •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة:١٨].

• ● ○ ● •

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ المراد بالفِسْقِ هنا الفسق الأكبر المُخْرِجُ عن الإسلام، وليس الفِسْق الأَصْغَر الذي يبقى فيه الإنسانُ مؤمنًا ناقِصَ الإيمانِ، ﴿كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾؟

الجوابُ: ﴿لَّا يَسْتَوُونَ﴾ وانْتَبِهْ أيُّها القارِئُ وَقِفْ على قوله تعالى: ﴿فَاسِقًا﴾ فإنَّ كثيرًا من القُرَّاءِ يَقْرَأُ ويستمِرُّ ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ ولا يَصِحُّ هذا، فإذا قرأْتَ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ فقِفْ، ثم قُلْ: ﴿لَّا يَسْتَوُونَ﴾ فهذا هو الجوابُ؛ وهو جوابُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإنَّ الله تعالى اسْتَفْهَم وأجاب نَفْسَه: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾؟ ثم أجابَ: ﴿لَّا يَسْتَوُونَ﴾ أيِ المؤمنونَ والفاسِقون؛ بماذا؟ ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا﴾ هو ما يُعَدُّ للضَّيْفِ ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

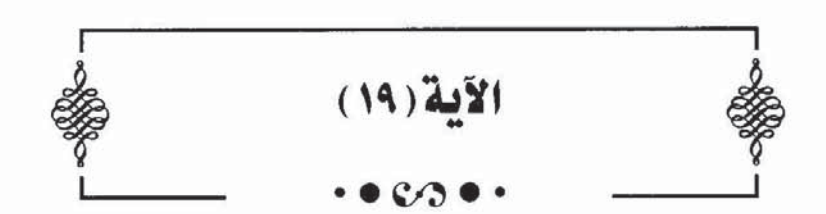
من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هذه الآيةِ تقريرُ أنَّه لا مساواة بين المؤْمِنِ والكافِرِ، وأنَّ هذا أمْرٌ لا يُمْكِنُ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ وقد قال الله تعالى في آياتٍ أخرى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ بل من السَّفَهِ ومن الخطأ في الحُكْمِ

أن يُجْعَلَ المسلمُ كالمجرمِ أو الفاسِقُ كالمؤمِنِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ المؤمِنَ خَيْرٌ من الفاسِقِ، ولو كان الفاسِقُ أعظَمَ جاهًا في الدُّنْيا عند الخَلْق؛ تُؤخَذ من عموم قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمَن﴾: (من) هذه اسْمُ اسْتِفْهامٍ، وأسماءُ الاسْتِفْهام من صِيَغِ العُمـوم، فلا يمكنُ لأيِّ فاسـقٍ أن يكون كالمؤْمِنِ، ولو عَظُمَتْ به الدُّنْيا، ولو نال من الدُّنْيا ما ينالُ، فإنَّه ليس كالمؤْمِنِ تمامًا، قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾.

• ● ۞ ● •



الآية (١٩)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٩].

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ ﴾: ﴿ أَمَّا ﴾ هذه حَرْفُ شَرْطٍ وتفصيلٍ، وتُفيدُ مع الشَّرْطِ والتَّفْصيلِ: التَّوْكيدَ؛ كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ وهنا قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ فيكون فيها ثلاثُ فوائِدَ:

١- شرطِيَّة: بدليلِ أنَّها أتى لها جوابٌ: ﴿فَلَهُمْ﴾.

٢- تَفْصِيليَّة: لأنَّها أتت بِقِسْمَيْنِ ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ و﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ ﴾.

٣- توكيديَّة: لأنَّه لا شكَّ أنَّ هذه الصِّيغَةَ تُفيدُ التَّوْكيدَ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ﴾ هذا جوابُ الشَّرْطِ.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ الجناتُ جَمْعُ جَنَّة، وهي في اللُّغَة: الحديقةُ الكَثيرَةُ الأشجارِ، وسُمِّيَت به لأنها تَجُنُّ مَن فيها أي تَسْتُرُه، لكنَّها في الشَّرْع: الدَّار التي أعدَّها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لأوليائه، فهي أعلى مما يدور في الخيال أو يَخْطُر على البالِ.

وقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ يعني التي هي مأواهُم، لا يَبْغُون عنها حِوَلًا ولا يتَحَوَّلون عنها، فهي مأوًى، كما أنَّ الجحيمَ مأوى الكافرينَ لا يَتَحَوَّلون عنها، فالمأوى مكان الإيواءِ؛ أي إنَّها هي الجناتُ التي يَأْوُونَ إليها ولا يَخْرُجون منها.

وقوله تعالى: ﴿نُزُلًا﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [هو ما يُعَدُّ للضَّيْفِ] وعلى هذا فهي تكونُ مَصْدرًا في مَوْضِعِ الحال، يعني أنه يُعَدُّ لهم هذا النُّزُلُ.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الباءُ هنا سَبَبِيَّة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ المؤْمِنَ لا يساوي الكافِرَ لا في عَمَلِه ولا في جزائِهِ؛ أمَّا العَمَلُ فظاهرٌ، هذا مؤمنٌ وهذا فاسقٌ، وأما الجزاءُ فبيَّنَ الله الفَرْقَ بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ وأولئكَ مأواهم النَّارُ، وفَرْقٌ بَيْن هذا وهذا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإيمانَ لا يَتِمُّ إلا بالعَمَلِ الصَّالِحِ؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فلا يكفي مُجَرَّدُ العقيدةِ، بل لا بدَّ من عَمَلٍ صالحٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ الجَنَّة؛ لقوله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ وهي موجودَةٌ الآن؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهي فِعْلٌ ماضٍ.

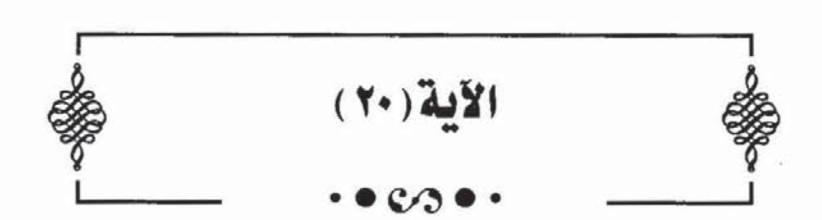
الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: طِيبُ منازِلِ الجَنَّةِ ومَقَرِّها؛ لقوله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ يعني: الجنَّات التي لا يتمنَّى الإنسان إلا أنْ يَأْوِيَ إليها، وكلُّ أَحَدٍ يتمنَّى هذا المأوى لكن لا ينالُهُ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ أَهْلَ الجَنَّة يُكْرَمُون بما يُنَعَّمون به كما يُكْرَمُ الضَّيْفُ بضيافته؛ لقوله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿نُزُلًا﴾ وتعلمون ما يُجْلَبُ للضَّيفِ من السُّرورِ في نَفْسه

إذا أُكْرِمَ بالضِّيافَةِ بخلاف الذي يُقَدَّمُ له الطَّعام عادِيًّا، يرى أَنَّه شيء معتادٌ ليس له أهمِّيَّة، لكن الذي يُقَدَّم له كضيافة وكأنه رجلٌ مُكْرَمٌ ومُحْتَرَم يجد في نفسه تلذُّذَه بالطَّعامِ التَّلَذُّذَ الجَسَدِيَّ ويجد تلذُّذًا وراحةً نَفْسِيَّة وإكرامًا، ولهذا سَمَّاه الله تعالى: ﴿نُزُلًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الجزاءَ مِن جِنْس العَمَلِ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

• • ۞ • •



الآية (٢٠)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

• • ○ • •

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ﴾ بالكُفْر والتَّكْذيب ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾] والعياذُ بالله (مأواهم) أي: مَرْجِعُهُم النَّار لا يَخْرُجونَ منها، ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ وانظر إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ﴾ يُمَنَّوْنَ بالخروجِ فترتَفِعُ بهم إلى أن يَقْرُبوا من أبوابِها ثم بعد أن يتمَنَّوُا الخروجَ ويُريدُوه يُعادُونَ فيـها، وهذا أشَدُّ -والعياذ بالله- في التَّعْذيب، فلو فَرَضْتَ أنَّك محبوسٌ في مكانٍ فقيل لك: تعالَ، تعالَ، وكلَّما قَرُبْتَ من البـاب ردَّكَ أو أن تبقى في حُجْرَة الحَبْس؛ فأيٌّ أشَدُّ؟

الجوابُ: أن يُقَرَّبَ إلى الباب ثم إذا أراد أن يَخْرُجَ قيل له: ارْجِعْ؛ لأنه -والعياذ بالله- إذا فعل هكذا صار كأنه يُحْبَس عدَّة مراتٍ؛ لأنَّ مَن أَشْرَفَ على الحياةِ ثم عاد إلى الموت صار ذلك مَوْتًا آخرَ فتكون عَوْدَتُه إلى مَحْبِسِه حبسًا ثانيًا.

وهكذا أهلُ النَّار -والعياذُ بالله- يُمَنَّوْنَ الخروجَ، وكلَّما أرادوا أن يخرجوا أُعيدوا فيها، وقيل لهم أيضًا توبيخًا ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ فيجتمع عليهم -والعياذ بالله- العذابُ الجسميُّ والعذابُ القَلْبِيُّ؛

فالجِسْمِيُّ من النَّارِ، والعياذُ بالله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ والقلبيُّ من هذا التَّوْبيخِ، قال تعالى: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ وأيُّ حَسْرَة للإنسانِ عندما يقال له هكذا؟! ألَا يتحَسَّرُ ويقول: ليتني ما كَذَّبْتُ! كيف أُكَذِّبُ؟! ويَتَمَنَّى!

ففيه -والعياذ بالله- من التَّوبيخِ والتَّنْديم وإدخالِ الحَسْرَةِ ما هو ظاهِرٌ؛ ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ في آيةٍ أخرى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ونحن إذا فاتنا شيءٌ في قضاء الله وقَدَرِه وهو مما يَسُرُّنا فهل الواحِدُ يَنْدَمُ؟

الجوابُ: يندَمُ، ويقول: ليتني فَعَلْتُ، وليتني فعلْتُ، مع أنه مَنْهِيٌّ عنه؛ لأنَّ هذا يفتَحُ عَمَلَ الشَّيطانِ، ويفتح بابَ النَّدمِ أو الاعْتِرَاض على القَدَرِ؛ ولهذا نهى رسولُ الله ﷺ عنه[1].

فالمُهِمُّ: أنَّ هذا التَّوْبيخَ يكون عذابًا قلبيًّا، وأمَّا كونُهم يُرَدَّدُونَ: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ فهو عذاب جسمِيٌّ بدني، فهم دائمًا -والعياذُ بالله- في عذابٍ وحَسْرَةٍ ونَدَمٍ، كما قال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف:٧٥] دائمًا وأبدًا، ليس هناك فَتْرَةُ راحةٍ؛ ولهذا يقولون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩] فانظر -والعياذُ بالله- إلى الخِزْيِ والتَّقاصُرِ، فما قالوا: ادْعُوا ربَّكُمْ يَرْفَعِ العَذابَ، ولكن قالوا: ﴿يُخَفِّفْ﴾ فقط، ولَا قالوا: ﴿يُخَفِّفْ﴾ دائمًا؛ بل قالوا: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾، وهذا يدلُّ على شدَّة يَأْسِهم؛ لأنَّهم أُيِئسُوا من الرَّحْمة -والعياذ بالله- يتمَنَّوْنَ، وليس لهم وجهٌ على الله

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

أن يسألوه، فيطلبونَ من خَزَنَةِ جَهَنَّمَ أن يشفعوا لهم إلى الله أن يُخَفِّف عنهم، قال عَزَّوَجَلَّ عنهم: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ ولكن تقول لهم الخزنة وتُوَبِّخُهُم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ فيقولون ﴿بَلَىٰ﴾ ثم يقولون: إذن نحن بُرَآءُ منكم ولا نتدخَّلُ في شَأْنِكُم.

وقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟﴾ ادعوا أنتم؛ يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ ضائع لا يَنْفَعُهُم؛ ولهذا إذا أَلَحُّوا على ربِّهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ وانظرْ إلى التَّضَرُّعِ: ﴿رَبَّنَا﴾ والاعترافِ: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ فهم حكموا على أَنْفُسِهِم، وكلُّ هذا من باب التَّضَرُّعِ؛ لأنَّ الإنسان إذا اعْتَبَرَ بإساءته فإنَّ هذا مَدْعَاةٌ لرحمته، فإذا جاءك واحِدٌ يَعْتَذِر بذنبه ويعترف بذنبه، فهذا يوجِبُ أَنَّك تَرْحَمُه، فهم يعترفون لعلهم يُرْحَمُون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾؛ قال الله تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟﴾ أي ذلُّوا وكونوا حقارى ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ بأي كلمة حينئذ -والعياذ بالله- فييْئَسونَ من كل خَيْرٍ، نسألُ الله السَّلامَةَ؛ ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الفِسْقَ نوعان: فِسْقٌ أَكْبَرُ، وهو الكُفْرُ، وفِسْقٌ دون ذلك وهو المعاصي.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الكُفَّارَ مأواهم النَّار؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ الفِسْق المُخرِج من المِلَّة، وهناك فِسْقٌ آخرُ ليس مُخْرِجًا من المِلَّة؛ مثل

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ﴾.

وهنا قال: ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ ولم يَقُلْ: فلهم النَّارُ مأوًى أو فلهم نارُ المأوى، والفارق: أنَّ النَّار كلُّ أَحَدٍ لا يُحِبُّ أن تكون مأواه، بخلاف الأَوَّلِ؛ فالجَنَّة كُلٌّ يُحِبُّ أن تكون هي المأوى، وأمَّا هذا فلا، وإن كان هذا الفَرْقُ قد يختلف في بعض الآيات؛ مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٣٧-٤١].

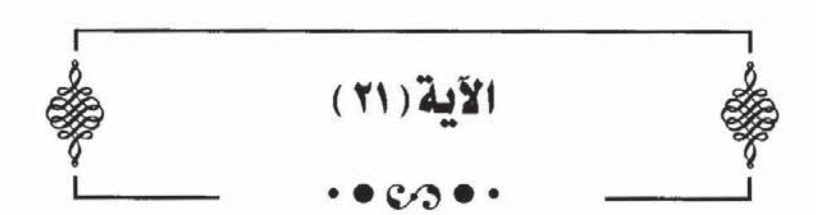
ولكنْ لكُلِّ مقامٍ مقالٌ؛ فهنا المقامُ مقامُ مُعادَلَة وموازَنَة، فلهذا فَرَّقَ بينهما؛ قال: ﴿جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ وهنا قال: ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أما هنا فليس هناك مُعادَلَة؛ لأنَّه لما ذكر أنَّ قومًا يَدَّعُون لأنْفُسِهم أنَّهُم على الحَقِّ، فأنكر الله ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ النَّار؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ وهي موجودة الآن، والدَّليلُ قولُه تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: شِـدَّةُ عذابِ أَهْلِ النَّارِ لِكَوْنِهِم يُمَنَّـوْنَ بالخُرُوجِ ويُرْفَعُـونَ فيَرتَفِعُ بهم اللهب حتى إذا ظَنُّوا أنَّهُم يَخْرُجونَ أعيدوا فيها: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ أَهْلَ النَّار يُجْمَعُ لهم بين العذابِ الجِسْمِيِّ والعذابِ القَلْبِيِّ للتَّوبيخِ؛ قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

• • ❁ • •



قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١].

•• •• ••

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ هذا فِعْلٌ مُؤَكَّدٌ بالنون واللام ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ تأكيدًا وجوبيًّا لأنَّه مُثْبَتٌ مُستقبَلٌ في جواب قَسَمٍ غير مَفْصولٍ من لامِهِ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ عذاب الدُّنيا بالقَتْلِ والأَسْر والجَدْب سنينَ والأَمْراضِ ﴿دُونَ﴾ قَبلَ ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ عذابِ الآخِرَة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي مَنْ بَقِيَ منهم ﴿يَرْجِعُونَ﴾ إلى الإيمان] وهذا وعيدٌ من الله عَزَّوَجَلَّ أنه يُذيقَهُم العذابَ الأدنى قبل العذابِ الأَكْبَرِ، وهو عذاب الآخِرَة لعلَّهُم يرجعون؛ و(لعلَّ) للتَّعْليل.

ولكن هل رجعوا؟

الجوابُ: منهم من رَجَعَ، ومنهم من لم يَرْجِعْ؛ فإن قريشًا أُصيبوا بالجَدْبِ والسِّنينَ والقَتْلِ ببدر، فقد قُتِلَ شُرَفاؤهم، والأَسْرِ أيضًا، ومع ذلك منهم من رَجَعَ ومنهم من لم يرجع، فمن أراد الله له النَّجاة أحيا الله قَلْبَه بهذه المواعظ فرجع، ومن طَبَعَ الله على قلبه بقي على ما هو عليه ولم يَرْجِعْ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ حِكْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ فيما يبتلي به من المصائِبِ؛ تُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن عذابَ الدُّنيا لا يُنْسَبُ إلى عَذابِ الآخِرَة؛ لما بينهما من الفَرْقِ العظيم، فهذا أدنى وذاك أكْبَرُ؛ يعني: كلاهما في طَرَفَيْ نَقيضٍ، يعني أدنى اسم تفضيلٍ، وأكْبَرُ اسم تفضيلٍ، فإذن: هل يُنْسَبُ أدنى شيءٍ إلى أعلى شيءٍ؟

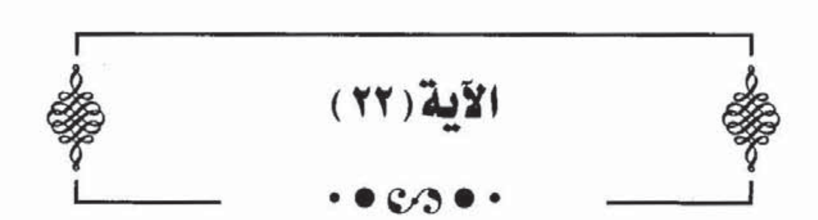
الجوابُ: لا نِسْبَةَ، ولهذا نقول: الفَرْقُ عظيمٌ بين عذاب الدُّنيا وعذابِ الآخِرَة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قَبُول التَّوبَةِ من الكافِرِ؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ حِكْمَةِ الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فإنَّ (لعلَّ) للتَّعليلِ، والتَّعْليل هو الحِكْمَةُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ العذابِ في الآخِرَة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ فإنَّ المرادَ به عذابُ الآخِرَة.

• • ۞ • •



الآية (٢٢)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢].

• • • •

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ القرآنِ ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ أي لا أَحَدَ أظلَمُ منه ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المشركينَ ﴿مُنتَقِمُونَ﴾].

[﴿مَنْ أَظْلَمُ﴾ أفاد المُفَسِّر بقوله: [لا أَحَدَ أظْلَمُ] أنَّ الاسْتِفْهامَ هنا للنَّفْي؛ أي: لا أحد أظْلَمُ منه، والظُّلْم سبق لنا عدة مرات أنَّ المراد النَّقْصُ في الأصل؛ لقوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي لم تَنْقُصْ، والمراد به نَقْص الإنسان فيما يجب عليه فيدَعُه؛ أو نَقْصُه فيما مُنِعَ منه فيرتَكِبُ المُحَرَّمَ.

وقوله: ﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾: ﴿ذُكِّرَ﴾ ما قال: ممن ذكَّرَه الرَّسُولُ ﷺ لأجل أن يَشْمَلَ كُلَّ مُذَكِّرٍ؛ لأنَّ بَعْضَ النَّاس قد يخضع لبعضِ المُذَكِّرينَ لكونه فلانًا، وهذا ليس خاضعًا للآياتِ، بل هذا خاضع للأشخاصِ فتَجِدُه إذا ذُكِّرَ بهذه الآيَةِ إن ذكَّره فلانٌ قَبِل وإن ذَكَّرَه آخَرُ لم يَقْبَلْ، ويُوجَدُ أناسٌ إذا أَمَرَهم إنسانٌ بأمرٍ معروفٍ لم يُهِمَّه، بل ربما يَسْتَهْزِئ به، وإذا أَمَرَهم به آخَرُ امْتَثَلَ وأظهر الموافَقَة؛ ولهذا قال: ﴿مِمَّن ذُكِّرَ﴾ لئلا يتقَيَّدَ بمذكِّرٍ مُعَيَّنٍ، بل أيَّ مُذَكِّرٍ يكونُ.

وقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المراد به [القرآن] والأصَحُّ

أنه أعَمُّ من القرآن ويَشْمَلُ حتى من ذُكِّروا بالتَّوْراة في زَمَنِ التَّوراة، ومن ذُكِّروا بالإنجيل في زمَنِ الإنجيل، وبالزَّبورِ في زمن الزَّبُور؛ لأنَّ هذا حُكْمٌ عامٌّ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أتى بالرُّبُوبيَّة المُقْتَضِيَةِ للانقياد؛ لأنه ما دام التَّذْكيرُ بآيات ربٍّ لك فأنت مربوبٌ عبدٌ، والمربوبُ في تدبيرِ ربِّه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ وفي آيةٍ أخرى ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ والفَرْقُ أنَّه في الآيات الأخرى ﴿فَأَعْرَضَ﴾ أنه بادَرَ بالإعراضِ، وفي الثَّانِيَة بعدما فكَّر وقدَّر، وفي هـذه الآية: أَعْرَض، والنَّاسُ هكذا منهـم من يُعْرِضُ لأوَّل وَهْلَة ولا يَلْتَـفِت ولا يُفَكِّر، ومنهم من قد يفكِّر، ولكن في النهاية يُعْرِضُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ الجملة استئنافِيَّة لبيان أو لتهديدِ هؤلاء المُعْرضينِ، وبيانِ أنَّهُم من المجرمينَ؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وهو إظهـارٌ في مَوْضِعِ الإضمار، والأَصْل: (إنَّا مِنهم)، لكنْ أظْهَـرَ في مَوْضِعِ الإضمار للسَّبَبين السابِقَيْن اللذينِ أَشَرْنا إليهما:

١ - أنه من أَجْل أن يحكم على هؤلاء بالإجرامِ.

٢ - ولأجل أن يكون الحُكْمُ عامًّا لكلِّ مُجْرِمٍ فيهم وفي غيرهم.

والإجرامُ بمعنى الإِثْم، والمُجْرِمُ هو الآثِم الذي ارتكَبَ ما لا يحِلُّ له؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ مُنْتَـقِمون، جَمَعَ ليطابِقَ المبتـدأَ ﴿إِنَّا﴾ الذي هو اسم (إنَّ) يعني أصبحت (إنَّنا) لكن حُذِفَتْ النُّونُ الثَّانِيَة تخفيفًا.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ الجمع هنا وفي كل ما يضاف

إلى الله يُرادُ به التَّعظيمُ، وقد سبق لنا أنَّ النَّصرانيَّ لو استدلَّ بالجمع على التَّعَدُّد، قلنا له: أنت من أصحاب الزَّيْغِ الذين يتَّبِعون ما تشابه منه؛ لأنَّك لو رجَعْتَ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ زال عنك هذا الاشتباه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ هي كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ فكلمة: ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ تعني أنه صاحِبُ انتقامٍ؛ يعني: لمن يستحِقُّه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ مُقَيَّدَةٌ: منتقمون من المجرمينَ، وبهذا نعرف أنَّ المُنْتَقِمَ ليس من أسماء الله؛ لأنَّ الاسْمَ من أسماء الله يكون مُطْلَقًا دالًّا على المعنى الأَحْسَنِ على كلِّ تقديرٍ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ فكل كلمة تحتمل هذا وهذا فإنَّها لا تكون من أسماءِ الله؛ لأنَّ الله يقولُ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ والانتقامُ لا شكَّ أنه حَسَنٌ في محلِّه؛ وعليه فلا يَصِحُّ أن يُوصَفَ الله به على سبيل الإطلاقِ، وهو معدودٌ من الأسماء الحسنى المشهورَةِ، لكنَّ هذه الأَسماءَ الحسنى المشهورة كما قال شَيْخُ الإسلامِ[1] وغَيْرُه من أهل التَّحقيقِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: «ليست ثابِتَةً عن الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ» لأن فيها أشياءَ من الأَسْماء لا تَصِحُّ اسمًا لله.

إِذَن: فهل يُوصَفُ الله بالانتقامِ مطلقًا، فيقال: المُنْتَقِم؟

والجوابُ: لا؛ لأنه ما ورد إلا مقيَّدًا، وورد ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ نكِرَةً في سياقِ الإثباتِ فلا تدلُّ على العمومِ؛ لأنَّ النَّكِرَةَ في سياق الإثباتِ -كما هو معروف- لا تُفيدُ العمومَ، وإنَّما تفيدُ العمومَ إذا كانت في سياقِ النَّفْي أو النَّهْي أو الشَّرط أو الاسْتِفْهامِ الإنكاريِّ، كما ذكره أهلُ الأُصولِ.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٦/ ٣٧٩).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ من كان على هذا الوَصْفِ فإنَّه لا يكون أحدٌ أظْلَمَ منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾.

وها هنا مسألةٌ، وهي أن مِثْل هذه العبارة جاءت في غَيْرِ هؤلاءِ، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، وفي السُّنَّة: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي»[1] فكيف نَجْمَعُ بين هذه النُّصوصِ؟

الجوابُ: ذكرنا فيما سبق أنَّ الجَمْعَ بأحَدِ وَجْهَيْنِ:

الوجه الأول: أن نقولَ: إن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لا يفيدُ أنَّ الظالمَ لا يُوجَدُ مُشارِكٌ أو مساوٍ له في هذا الظُّلْمِ، وإمَّا نقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ﴾ اشتركا في الأَظْلَمِيَّة، وأنَّ هذا أعلى ما يكون في الظُّلْمِ.

والوجه الثاني: أن نقول: إنَّ الأَظْلَمَ بالنِّسْبَةِ لما تحته مِن نَوْعِهِ، وهنا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ يعني هذا أظْلَمُ ما يكون مِنَ المذكورينَ، بخلاف مَن ذُكِّرَ ثم أَعْرَض عن البَعْضِ، أو ما أشبه ذلك، فيصير هذا الأَظْلَمَ بالنِّسْبة لما تحته من نَوْعِهِ؛ كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ يعني لا أَحَدَ أظلَمُ في مَنْعِ شيءٍ من الأشياء مِمَّن منع مساجِدَ الله، وعلى هذا فَقِسْ، فصار الجوابُ بأَحَدِ وجهين.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، رقم (٧٥٥٩)، ومسلم: كتاب اللباس، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١١١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإنسانَ يجب أن يَقْبَلَ التَّذْكيرَ من أيِّ مَن ذَكَّره، تُؤخَذُ من بيانِ الفِعْل ﴿ذُكِّرَ﴾، فلم يَقُل: ممن ذكَّره الرَّسُول، أو ذَكَّره فلان أو فلان، فإذا وَقَعَ التَّذْكيرُ أو أتاك التَّذكيرُ من أيِّ جِهَةٍ فالواجِبُ عليك القَبولُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الإعراضَ بعد العِلْم أقْبَحُ منه حالَ الجَهْلِ؛ لأنَّ الله تعالى جَعَلَ هذا أعظمَ الفِسْقِ: أن تُذَكَّرَ ثُمَّ تُعْرِضَ، لكن مَن أَعْرَضَ بدون تذَكُّرٍ فهو أَهْوَنُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الجزاءَ من جنْسِ العمل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الإعراضَ عن آيـات الله بعد التَّذْكيرِ بها إجـرامٌ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

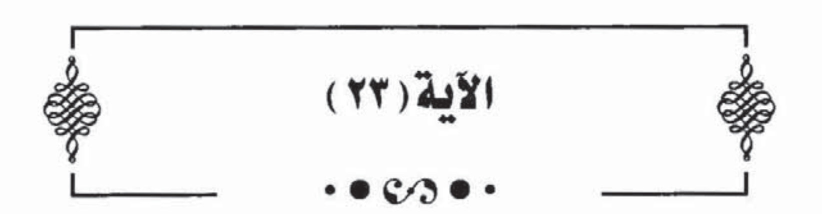
الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: جواز إضافَةِ الانتقامِ إلى الله مُقَيَّدًا؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ يعني الإخبار عن الله بأنه مُنْتَقِمٌ، لكنْ مُقَيَّدًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ عَظَمَةِ الله؛ لقوله تعالى: ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ فإنَّ الجَمْعَ هنا للتَّعْظيم.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بلاغَةُ القُرْآنِ وأنَّه في أعلى ما يكون من البلاغَةِ والفصاحَةِ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ولم يَقُلْ: إنَّا منه؛ من أجل أن نَسْتَفيدَ فائِدَتَيْنِ:

الفائِدَةَ الأولى: أنَّ هذا مُجْرِمٌ.

الفائدة الثَّانِيَة: أنَّ الحُكْمَ يعمُّهُ وغَيْرَه من المجرمينَ.



الآية (٢٣)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [السجدة:٢٣].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: ﴿ءَاتَيْنَا﴾ بمعنى أَعْطَيْنا، وهو إعطاء شرعي قَدَرِيٌّ، وقوله تعالى: ﴿مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: ﴿مُوسَى﴾ مفعولٌ أوَّلُ، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مفعولٌ ثانٍ، و(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ للعَهْدِ الذِّهْني؛ لأَنَّه لم يُسْبَقْ له ذِكْرٌ حتى يُحالَ على المذكورِ، وليس شيئًا حاضرًا حتى يقولَ: إنَّه عَهْدٌ حضوريٌّ.

إِذَن: فهو عَهْدٌ ذِهْنِيٌّ؛ لأنه كتابٌ معهودٌ معروفٌ، وهو التَّوْراةُ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ﴾ شك ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾] ﴿فَلَا تَكُن﴾ الخطابُ هنا -على ما مشى عليه المُفَسِّر- للرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والضَّميرُ في لقائه يعودُ على موسى، والمعنى: فلا تكُنْ يا محمَّدُ في مِرْيةٍ؛ أي في شكٍّ ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي لقاءِ موسى؛ يعني فإنَّكَ سَتُلاقيهِ، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وقد التَقَيا ليلَةَ الإسراء] هذا ما ذهب إليه المُفَسِّر وذهب إليه كثيرٌ من المُفَسِّرين أيضًا؛ أنَّ الخطابَ للرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والضَّميرُ يعودُ على موسى، والمعنى: لا تكُنْ يا محمَّدُ في شكٍّ من مُلاقاةِ موسى؛ فإنَّكَ سَتُلاقيه، وقد لاقاه في لَيْلَة الإسراءِ.

وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الإسراء] لأنَّ الإِسْراءَ والمِعْراجَ في ليلةٍ واحِدَة، هذا ما ذَهَبَ إليه المُفَسِّر؛ ويُحْتَمَلُ أنَّ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن﴾ خطابٌ لموسى؛ يعني: آتَيْنا موسى الكتابَ قائلينَ له: لا تَكُنْ في مِرْيَةٍ من لقائِهِ؛ أي لقاءِ الجَزاءِ عليه؛ أي: على الكتابِ، والمعنى أنَّ هذا الكتابَ الذي آتيناكَ إيَّاه لا بدَّ أن يُحاسَبَ عليه مَن نَزَلَ إليهم حتى يلاقُوا جزاءَهُم.

ويُحتَمَل أنَّ المعنى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي لقاء ما لَقِيَه موسى من الأذى؛ فإنَّ موسى أُوذِيَ، وقال النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لَقَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرَ مِنْ هَذا فَصَبَرَ»[1] وهذا أيضًا من المعنى الحَسَن: أنَّ المعنى: أَنَّنا آتَيْناه وآتَيْناكَ أيضًا وأُوذِيَ فستُؤْذَى؛ فلا تَكُنْ في شكٍّ من هذا، وهذا هو الواقِعُ؛ فإنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَقِيَ من الأذى الشَّيْءَ الكثيرَ، وكُلُّ من تَبِعَ شَريعَتَه وانْتَهَج مِنهاجَهُ في الدَّعْوة إلى الله والعَمَل في شَريعَةِ الله فَسَيَلْقى الأذى، ولكنَّ الشَّأْنَ كلَّ الشَّأْنِ: هل يَلْزَمُ من الأذى الضَّرَرُ؟

الجوابُ: لا يَلْزَمُ من الأذى الضَّرَرُ؛ ولهذا يَصِحُّ أن نقولَ: إنَّ الله يُؤْذَى ولا يتضَرَّرُ؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الحديث القُدُسِيِّ: «يُؤْذِيني ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ»[2] مع أنه قال عَزَّوَجَلَّ في الحديثِ القُدُسِيِّ: «يَا عِبادِي، إِنَّكُمْ لم تَبْلُغُوا ضُرِّي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الصبر على الأذى، رقم (٦١٠٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، رقم (١٠٦٢)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ الآية، رقم (٤٨٢٦)، ومسلم: كتاب الأدب، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فَتَضُرُّونِي»[1] فلا يَلْزَمُ من الأذى الضَّرَرُ، فها نحن الآن نتأذَّى برائِحَةِ إنسانٍ أَكَلَ بصَلًا أو ثُومًا ولا نتَضَرَّر، فلا يَلْزَمُ من الأَذى الضَّرَرُ، والرَّسولُ ﷺ لا شكَّ أنَّه أُوذِيَ، ولكن ما ضَرَّه ذلك، والحمْدُ لله! صار الأَمْرُ والعاقِبَةُ للرَّسول ﷺ.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ فالمعنى أنه لن يضرُّوكم أبدًا، ولكن مِن أذًى؛ ولهذا قالوا: إنَّ الاسْتِثْناءَ في هذه الآيَةِ مُنْقَطِعٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى﴾ ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾: الضميرُ يعود على موسى أو الكِتاب؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي موسى أو الكتابَ ﴿هُدًى﴾ هاديًا ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾].

﴿هُدًى﴾ مصدرٌ، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّه بمعنى اسْمِ الفاعِلِ [هاديًا ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾]، واسْمُ الفاعِلِ صالِحٌ للكتابِ وصالِحٌ لموسى.

وقوله تعالى: ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بنو إسرائيلَ أي: ذُرِّيَّة إسرائيلَ، فيشْمَلُ الذُّكورَ والإناثَ، لكِنْ لو قُلْتَ: (بنو فلان) وهو شَخْصٌ، وليس هو بقبيلَةٍ، فـ(بنو): للذُّكور، فإذا قلْتَ مثلًا: (بنو محمَّدٍ) فالمعنى: الذُّكور، وإذا قُلْتَ: (بنو تميم) فيشْمَلُ الذُّكورَ والإناثَ؛ لأنَّهم قبيلةٌ، وإذا قلتَ: (بنو آدَمَ) فيَشْمَلُ الذُّكورَ والإناثَ، وأما قوْلُ الرَّسُولِ ﷺ: «**إِنَّ هَذَا شَيْءٌ كَتَبَهُ اللهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ**»[2] فخاصٌّ بهنَّ.

وإسرائيلُ هو يعقوبُ بْنُ إسحاقَ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، وهُوَ نَبِيٌّ من الأنبياءِ، ويقولون: معنى (إسرائيلَ) أي: عَبْدُ الله، وهو لقبٌ له.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب كيف كان بدء الحيض، رقم (٢٩٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام (١٢١١)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

من فوائد الآية الكريمة:

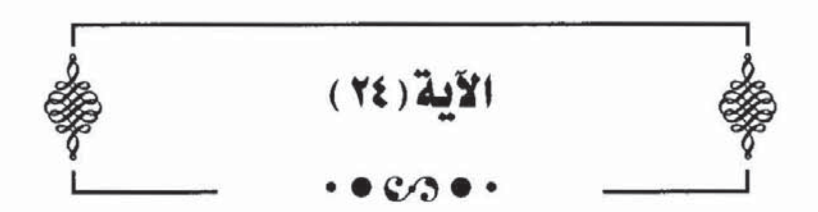
الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ رسالَةِ موسى؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، وتأكيدُ هذه الرِّسالَةِ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ لأنَّ الجملة مُؤَكَّدَةٌ بثلاثَةِ مُؤَكِّداتٍ: اللام، وقَدْ، والقَسَم المُقَدَّر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رسولٌ حقًّا لا يجوز الشَّكُّ فيه؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ يعني أنَّ هذا حَقٌّ؛ فلا تكُنْ في شَكٍّ من أنَّه حصل لموسى هذا الذي حصل، وهذا على التَّفسيرِ الذي ذكرنا، أمَّا على ما قاله المُفَسِّر فيُسْتفادُ منه: أن محمدًا ﷺ سوف يُلاقي موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ التَّوْراةَ كالقرآنِ هُدًى؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى﴾ لكن لبيانٍ مَخْصوصٍ وهو: ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الإشارَةُ إلى أنَّه لا ينبغي لنا أن نطلُبَ الهُدى من التَّوْراة؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أما مِن بَعْدِ بَعْثَة الرَّسُول فالهدى لهم هو القُرْآنُ.

• • ۞ • •



الآية (٢٤)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

• • • •

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً﴾ أي: صيَّرْنا، والجَعْل هنا كونيٌّ، وغالِبُ الجَعْلِ المذكور في القرآن كونيٌّ، وإن كان يأتي بمعنى الشَّرْعيِّ؛ مثل قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ إذ المعنى: ما جعله شَرْعًا وأمَّا كَوْنًا فقد وقع.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: مِنْ بني إسرائيل.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَيِمَّةً﴾ بتحقيقِ الهمزتين وإبدال الثانية ياءً] هذه هي تفسيرٌ للأئِمَّـة، فـ(أئمة) هذا تحقيق، و(أَيِمَّة) إبدال الثانيـة ياءً، وكثيرٌ من القُرَّاء عنـدنا يقرؤونها بالتَّسْهيل دائمًا يقولون: (أَيِمَّة).

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قادة] تفسير لأئِمَّة؛ لأنَّ الإمامَ هو الشَّيْء الذي يُقتدَى به ويُتَّبَع.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَهْدُونَ﴾ النَّاسَ ﴿بِأَمْرِنَا﴾] ﴿يَهْدُونَ﴾ أي يَدُلُّون النَّاس، والمراد بالهدايَةِ هنا هدايَةُ الدَّلالَةِ؛ لأن هدايَةَ التَّوْفيق لا تكونُ إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لكن هذه هدايَةُ دلالَةٍ.

وقوله تعالى: ﴿بِأَمْرِنَا﴾ يُحتَمَل أن يكون الأمْر الشَّرْعي أو الأَمْر الكَوْني، فإن كان المرادُ به الشَّرْعيَّ، فالمعنى: يَهْدُون النَّاسَ بالشَّرْع؛ أي: إليه، وإن كان الأَمْرُ قَدَرِيًّا فالمعنى: أنَّهُم يَهْدونَ ذلك ويَدُلُّونهم بقَدَرِنا وتَقْدِيرنا، والحقيقةُ: أنَّ الأَمْر هنا شاملٌ للمعنيينِ جميعًا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَمَّا صَبَرُواْ﴾ على دينهم وعلى البلاءِ مِنْ عَدُوِّهِم، وفي قراءةٍ بِكَسْرِ اللام وتخفيف الميم] وهي: (لِـمَا صَبَرُوا)].

فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَمَّا صَبَرُواْ﴾ لما هذه فيها قراءتان: قراءة: (لِـمَا صَبَرُوا)، وقراءة: ﴿لَمَّا صَبَرُواْ﴾، أما على قراءةِ: ﴿لَمَّا صَبَرُواْ﴾ فهي بمعنى حينَ، فهي إذن ظَرْف، وأما على قراءة (لِـمَا صَبَرُوا) فاللَّامُ حَرْفُ جَرٍّ و(ما) مَصْدَرِيَّة؛ أي: لصَبْرِهم، وتكون اللام هنا لامَ التَّعليل.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿صَبَرُواْ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [على دينهم وعلى البَلاءِ من عَدُوِّهم]، وهذا هو الحق، فيقول: الصَّبْرُ هنا على أحكامِ الله الكَوْنيَّة والشَّرعيَّة؛ فالشَّرعيَّة على دِينِهم، والكَوْنِيَّة على قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وعلى البلاءِ مِن عَدُوِّهم].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدالَّةِ على قُدْرَتنا ووَحْدَانِيَّتنا ﴿يُوقِنُونَ﴾] ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ الواو حرف عطف، و(كان) معطوفةٌ على ﴿صَبَرُواْ﴾، يعني لهذين الأَمْرينِ: الصَّبْرِ واليقينِ، واليقينُ هو أعلى درجاتِ الإيمان؛ لأنَّ اليقينَ معناه: أنه يقينٌ لا تَزَعْزُعَ معه ولا شَكَّ فيه، وقد قيل: (بالصَّبْر واليَقينِ تُنالُ الإمامةُ في الدِّينِ)، وهي مأخوذةٌ من هذه الآيةِ: ﴿لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدَّالَّة على قُدْرَتنا ووَحْدانِيَّتنا] يَشْمَلُ الآياتِ الشَّرعيَّةَ والكونيَّةَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فضيلةُ الصَّبْر؛ تُؤخَذُ من الجزاءِ عليه؛ أي: مِن كَوْن الصَّابِر يكون إمامًا، وهذا دليـلٌ على أنَّ الصَّبْرَ محبوبٌ إلى الله ويجازي عليـه بهذا الجزاء العَظيم.

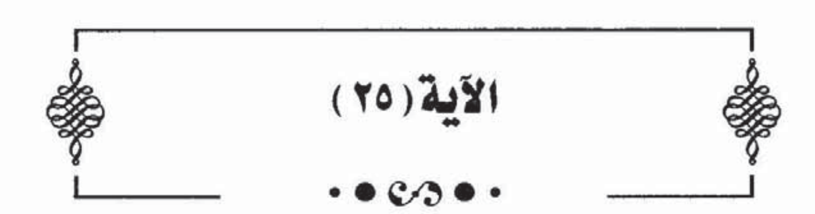
الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فضيلَةُ اليقينِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: نَيْلُ الإمامَةِ في الدِّينِ بهذين الوَصْفَيْنِ؛ وهما: الصَّبْرُ واليقين.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الجزاءَ مِن جِنْسِ العمـل؛ لأنَّ هؤلاء لما صَبَروا وأيقنـوا صاروا أئِمَّةً يُقتَدَى بهم؛ فكلما أصاب الإنسانَ شيءٌ قال: لقد أُصيبَ فُلانٌ فصبر فلْتَصْبِرْ، وكلما وردت عليه شُبْهَةٌ قال: لقد كان فلان مُوقنًا فأنا أُوقِنُ، فيكون الإنسانُ بذلك إمامًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ الآياتِ لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

• • ۞ • •



الآية (٢٥)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [السجدة:٢٥].

•●∞●•

قوله: [﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أَمْرِ الدِّينِ] ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ ﴾ الفَصْل بمعنى: القضاء؛ أي يقضي ويَحْكُمُ حتى يَمِيزَ الحقَّ لهؤلاء وهؤلاء.

والحُكم كما قال الفُقَهاء: هو فَصْلُ الخُصوماتِ؛ لأنـه به يَتميَّزُ هذا من هـذا ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ في حُكْمِهِ الجزائيِّ؛ لأن حُكْمه الشرعِيَّ فاصِلٌ في الدُّنيا، فهؤلاء على حقٍّ، وهؤلاء على ضَلالٍ، لكن مرادُه: الحكْمُ الجزائيُّ الذي هو غايَةُ الشَّرْعِ، فيومَ القيامَةِ يَفْصِلُ بينهم؛ فهؤلاء إلى النَّار، وهؤلاء إلى الجنَّة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فقد كانوا يختلفونَ في الدُّنْيا؛ فالمؤمنون يقولون: إنَّ هذا هو الحَقُّ، وأولئك يقولون: ليس هذا هو الحَقَّ، لكنْ يَوْمَ القيامَةِ يُفْصَل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، ويَتبيَّنَ مَن هو الذي على الحقِّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنه لا حاكِمَ في الآخِرَة إلا الله، تُؤخَذُ من ضميرِ الفَصْل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ فهو وَحْدَه يَفْصِلُ، وقد قال الله تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، وقال: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ يَوْم القيامَةِ؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَحْكُمُ بين المؤمنين والكافرين في ذلك اليَوْمِ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيقول: أنتم على حَقٍّ، وأنتم على باطِلٍ؛ وهؤلاء للجَنَّةِ، وهؤلاء للنَّارِ، والغالِبُ المُنْتَصِرُ هم المؤمنون.

وقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١]، فانظر! قاضٍ يُعْلِنُ الحُكْمَ بين الخَصْمَيْنِ ويقول: أنتَ الغالِبُ، يعلن بالحُكْمِ قبل القَضِيَّة، وهذا في حَقِّ الله عَزَّوَجَلَّ لا شَكَّ أنه جائِزٌ، لكنْ في قضيَّة في الدُّنْيا ويأتي القاضي ويقول: يا فلانُ أنت كاذِبٌ، وذاك ليس له سبيلٌ عليكَ، فهذا لا يجوز:

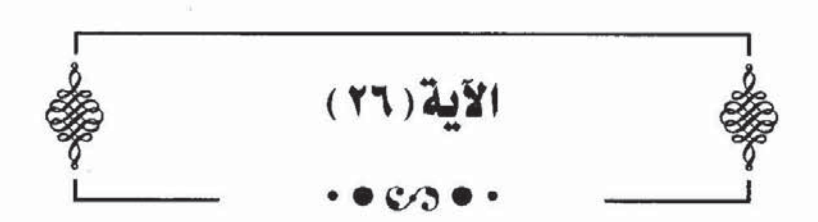
أولًا: لأنَّ القاضيَ إلى الآن ما عُرِضَتْ عليه هذه القضيَّة ولا يدري.

ثانيًا: أنَّ الخَصْمَ غالبًا يَذْكُرُ الحُجَّة التي له سواء إنْ قَصَدَ إخفاءَ قضِيَّة خَصْمِه أم ظنَّ أنها لا تَنْفَعُه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنه لا وِفاقَ بين المؤمنينَ والكافرين؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فأيُّ إنسانٍ يحاوِلُ أن يقارِبَ بين الإسلامِ والنَّصْرانيَّة

أو بين الإسلامِ واليهودِيَّة فإنَّه أراد أن يَرُدَّ اللَّبَنَ في الضَّرْعِ! وهذا غير مُمكِنٍ؛ فكلُّ كافرٍ مهما كان سواءٌ انتسَبَ إلى الإسلامِ أم كان كافرًا مُعْلِنًا كُفْرَه فإنَّه لا يُمْكِنُ أن يتوافَقَ مع المؤمنين أبدًا، ومن زعم ذلك فقد أَبْعَدَ النَّجْعَةَ وحاول شيئًا مُسْتَحيلًا.

••۞••



الآية (٢٦)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة:٢٦].

•••

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ أي: يتبيَّنْ لكفَّارِ مكَّة إهلاكُنا كثيرًا ﴿مِّنَ الْقُرُونِ﴾].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الهَمْزة هنا للاسْتِفْهام، والواو حرفُ عَطْف، وقد سبق لنا في مثل هذا التَّرْكيب أنَّ للعلماءِ في ذلك قولَيْنِ في الإعرابِ.

وقوله تعالى: ﴿يَهْدِ لَهُمْ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يَتبيَّنْ لهم]، وفي الحقيقةِ أنَّ هذا التفسيرَ تفسيرٌ باللازِمِ، وإلا فإنَّ الهدايَةَ في الأَصْلِ: الدَّلالَة، لكن بالدَّلالَةِ يكون البيانُ؛ فلهذا فسَّروها باللَّازِمِ: (أَوَلَمْ يَتبيَّنْ لهم).

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾: ﴿كَمْ﴾ هذه خبرية، وهي في محل نَصْبٍ مفعولٌ مقدَّمٌ لـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، وهذه الجملة: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، تؤول بمصدر مِن غير حرف مصدري، يعني: أولم يتبين لهم إهلاكُنا، وقد سبق لنا أن جُملًا قد تُؤَوَّل بمصدرٍ مِن غير حرفٍ مصدريٍّ، مثال ذلك قوله: ﴿اسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ يعني سواء عليهم إنذارك وعدمه، وسواء عليهم استغفارك وعدمه، فهذه مما يؤول بمصدرٍ بدون حرفٍ مصدري.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم ﴾ أي يتبين لكفَّار مكة] المُفَسِّر دائمًا يخُصُّ مثل هذه العباراتِ لأهْلِ مكَّة، وكأنَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى أنَّ كونَ الآيات المكية تُعَيِّنُ المرادَ، ولكِنَّ الأَوْلى أن يُقالَ: العِبْرةُ بِعُمومِ اللَّفْظِ لا بخصوص المكانِ، كما أنَّ العِبْرة بعمومِ اللَّفْظ لا بخصوص السبَّب، فإذا لم يكن هناك سببٌ يقتضي تخصيصَ المكان به فإنَّ العِبْرَةَ بالعموم.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الأُمَم بكُفْرِهم] أي: بسببِ الكُفْر، والقرونُ جَمْعُ قرنٍ، والمراد بالقَرْنِ الأُمَّة من النَّاس، كما في الحديث الصَّحيحِ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الذينَ يَلُونَهُمْ»[1].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَمْشُونَ﴾ حالٌ من ضميرِ ﴿لَهُمْ﴾] في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾؛ فـ﴿يَمْشُونَ﴾ حالٌ من ضمير لهم، وإن كان يُحْتَمَلُ الحالُ ﴿مِن قَبْلِهِم ﴾ لكِنْ ﴿لَهُمْ ﴾ أحسن، لأنها مبتدأُ الكلام؛ يعني: حالَ كَوْنِ هؤلاء يمشون.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ في أَسْفارِهِم إلى الشَّام وغيرها] يعني أنَّ هؤلاء الذين بَقُوا إلى وقت نزولِ القرآن قد تبَيَّنَ لهم إهلاكُ الأُمم السَّابِقَة، وهؤلاء الذين بَقُـوا إلى وقت نزولِ القُرْآنِ يَمْشُون في مساكِنِ أولئـك المعَذَّبينَ، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في أَسْفارِهِم إلى الشَّامِ] أي في طريقهم إلى الشام -بمعنى أنَّ المراد كُفَّارُ مكَّة- مثل ديار ثمودَ ومثل ديارِ قوْمِ لوطٍ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة الحِجْرِ: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، وكونهم يمشون في مساكنهم هذا أَبْلَغُ في النَّظَر وفي التبيُّن؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، رقم (٢٦٥٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لأنَّهُم يرون ذلك عَيْنَ اليقين، وعينُ اليقينِ أشدُّ من عِلْمِ اليقين؛ ولهذا قال إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ فإحياءُ الموتى عند إبراهيم قبل أن يشاهِدَه بِعَيْنِه من باب عِلْمِ اليقينِ، فإذا شاهدهم صار من بابِ عَيْنِ اليقينِ.

وقد ذكر العلماءُ أنَّ لليقينِ ثلاثَ درجاتٍ: (علمًا) و(عينًا) و(حقًّا)، وكل ذلك مذكور في القرآنِ؛ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ فهذا عَيْنٌ وعِلْمٌ في سورة واحدة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ هذا حقُّ اليقين، هذه مراتِبُ اليقينِ الثَّلاثُ.

والفرق بينها: أنَّنا نحن نعلم عِلْمَ اليَقينِ أنَّ في الجَنَّة نَخْلًا ورمَّانًا وفاكِهَةً، فإذا رأيناها بأعْيُنِنا -ونسأل الله أن يَجْعَلَنا وإيَّاكُم نراها- إذا رأيناها بأعْيُنِنا صار ذلك عَيْنَ اليقينِ، فإذا أكلناها صار حَقَّ اليقينِ.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: لماذا لا يكون عينُ اليقينِ حقَّ اليقينِ؟

فَنَقُول: الآن هناك عَناقيدُ عِنَبٍ من البلاستيكِ الذي يراها عينَ اليقينِ يَحْسَبُها عنبًا، ولو تُعْطِي شَخْصًا بذْرَةً صغيرةً منها لأخذها وأَكَلَها؛ نحو قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ لكِنْ عندما نأكُلُ تلك البلاستيك تتبيَّنُ الحقيقةُ.

فـ(حق اليقينِ) أعلى من (عين اليقين)، لكن ما لا يُدْرَكُ إلا بالرُّؤْيَةِ فتكون رُؤْيَتُه (حقَّ اليقين). وكلُّ هذا تقريرٌ على قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ لأنَّ كَوْنَهم يمشونَ في مساكنهم معناه: أنَّهُم يُدْرِكونَ ذلك (عينَ اليَقينِ) فيشاهِدُون بأَعْيُنِهم، وهو أبلَغُ من الخَبَر.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ دلالاتٍ على قُدْرَتِنا] ولو قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وعلى انتقامِنا من المُجْرمينَ» لكان أَوْلى وأَنْسَبَ، لأنَّ المقامَ الآن مقامُ اعتبارٍ بما جرى، فيكون هذا فيه دلالَةٌ على الانتقام من المكَذِّبينِ، فيكون أدعى للاعتبارِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ هذا للتَّوْبيخِ، الاسْتِفْهامُ للتَّوْبيخ، والمرادُ: قال المُفَسِّر: [﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ سَماعَ تدبُّرٍ واتِّعاظٍ] وإلا فهم يسمعون سماعَ إدراكٍ، لكنْ سماعُ الإدراكِ لا يُجْزِئ، بل يَضُرُّ، فإذا لم تنتفِعْ بسماعِ الإدراك -يعني بالأذن- كان ضررًا عليك، كما أنَّ العِلْمَ إذا لم تَنْتَفِعْ به كان ضررًا، فالمراد هنا: سَماعُ الاتِّعاظِ والاعْتِبارِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: استعمالُ ضَرْبِ الأمثالِ؛ تُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ يعني: فإذا كنَّا أهلَكْنا مَنْ قَبْلَهُم فسَنُهْلِكُهُم إذا كانوا مِثْلَهم؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ في سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الاستدلالُ بالشَّيْء المحسوسِ على الشَّيْء المعقولِ؛ لقوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾؛ أو بعبارة أخرى: الاستدلالُ بِعَيْنِ اليقينِ على صِدْقِ عِلْمِ اليقين؛ فقوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ هذا عِلْمُ اليقينِ، وقوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ هذا عين اليقينِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جواز المشي بدارِ المُعَذَّبينَ ومساكِنِهم؛ تُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ ولكن: هل ذِكْر الخَبر عن الشَّيْء يفيد حِلَّه؟ والحقيقة أنه لا يُفيدُ، يعني: كَوْنُ هذا هو الواقِعَ الحقيقة أنَّهُم يمشون في مساكِنِهم لا يدُلُّ أنَّ هذا المشي مأذون فيه، وقد أخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّ الظَّعينة تمشي من حَضرمَوْتَ إلى صنعاءَ مسيرًا لا تخشى إلا الله[1]، والظَّعِينة وحدها حرامٌ أن تسيرَ هذا المسير، وقال الرَّسُول ﷺ: «**لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ الْيَهُود والنَّصَارَى**»[2] وهذا حرامٌ.

فالإخبار عن كَوْنِهم يَمْشُون في مساكِنِهم لا يدلُّ على أنَّ المَشْي حلالٌ، لَكِنْ هل يدلُّ على أنَّه حرامٌ؟

الجوابُ: لا يدلُّ على أنَّه حلال ولا على أنَّه حرامٌ؛ فنَرْجِعُ إذن إلى الأدِلَّةِ الدَّالَّة على ذلك على التَّحْريمِ أو التَّحْليل، فنجد أنَّ الأَدِلَّة تدُلُّ على أنَّ السَّيْرَ فيها جائِزٌ، وأمَّا السكنى فلا تجوز، ومع ذلك فقد قال الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَـؤُلاءِ المُعَذَّبينَ إِلَّا أن تَكُونوا باكينَ، فإن لم تكُونوا باكينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا**»[3]

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٥٩٥)، من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «**لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله**». وأخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦١٢)، من حديث خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «**والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه**».

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٥٦)، ومسلم: كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم (٢٦٦٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحِجر، رقم (٤٤١٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم (٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فالإنسان الذي يَقْصِدُها نقول: لا تَدْخُلْها إلا باكيًا، وأما الذي يَمُرُّ بها مرورًا فلَهُ أن يَمُرَّ، ولكن يُسْرِعُ كما أسرع النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

أما الذَّهابُ إلى هذه المساكِنِ من أجل أنْ يتفرج ويقول: حضارةٌ عظيمةٌ، وانْظُرْ هذه الحضارَةَ القديمةَ! هل يوجد في الحضارَةِ الجديدة مثلُها! ويُشَمُّ من كلامِهِ تعظيمُ هؤلاء؛ فهذا لا نوافِقُ عليه؛ لأنَّ هذا من السَّيْرِ في الأرض المنْهِيِّ عنه؛ لأن كَوْنَنا ندخل على هؤلاء متفرجين مُنْبَسِطِينَ مُنْبَهِرينَ بِقُوَّتِهم متناسينَ ما وقع بهم من العذاب لمخالَفَتِـهِم أَمْرَ الله ورُسُلِه، فإن هذا مذمومٌ، وليـس محمودًا ولا مأمورًا به.

وعليه، فنقول لكلِّ من أراد أن يَذْهَبَ إلى هذه البلادِ: إذا كنتم فَعَلْتُم ذلك على سبيل النُّزْهَة فهذا حرامٌ عليكم، أما على سبيل الاعتبارِ والاتِّعاظِ بما جرى لهم من العذابِ والنَّكَالِ وأن تتأَثَّرُوا بذلك حتى تَبْكُوا فهذا جائِزٌ، وإلا فلا تدخلوا حتى لا تُعَرِّضُوا أنفُسَكُم للعذابِ، وأمَّا عن شَدِّ الرِّحالِ فليس فيه بأسٌ؛ لأنه ليس على سبيل التَّعَبُّدِ بهذا المكان نَفْسِه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ في إهلاكِ الأُمَمِ عِبْرَةً وآيةً؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ فهو آيةٌ لِكَوْنِ الله تعالى أَخَذَهُم وأَهْلَكَهُم مع قُوَّتِهم؛ وهي عبرةٌ؛ أنَّ الله أَخَذَهُم لمخالفته؛ كما قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾، وكلُّ هذا يُفيدُ بأنه يَجِبُ علينا نحن أن نَعْتَبِر بهذه الآياتِ وأن نخافَ.



الآية (٢٧)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة:٢٧].

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ اليابِسَةِ التي لا نباتَ فيها ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ هذا، فيَعْلَمُون أَنَّا نَقْدِر على إعادَتِهم].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ﴾ هل المرادُ بالرُّؤْية رُؤْيَةُ البَصَر أو العِلْمِ أو كلتاهما؟

الجوابُ: كلتاهما، فإذا كان ذلك بأَرْضِهم رَأَوْه بأَعْيُنِهم، وإذا كان في أَرْضِ غَيْرِهم رأَوْه بِقُلُوبِهم رؤيةَ عِلْم، وهذا مُشاهَدٌ.

وقوله تعالى: ﴿نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ وهل نسوقُ الماءَ في الجَوِّ أو نسوقُه على الأرض، أو كلاهما؟

الجوابُ: كلاهما، فالأوَّل: ماء المَطَر نسوقُه في الجوِّ؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ والثَّاني الأنهار؛ تُساقُ إلى الأراضي القاحِلَة فتَنْبُت، وسواء كانت الأنهارُ كبيرةً كالأنهارِ المَشْهورة المعروفة أو صغيرة كالمياه النَّابِعَة، فإنَّها أنهارُ عيونٍ تسوقهم إلى الأَرْضِ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ بمعنى الخالِيَة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ خالِيَةً من كلِّ شيء، أرضٌ جُرُزٌ لا شيءَ فيها، وليس فيها أيُّ شجرةٍ فيأتيها المطَرُ أو يأتيها ماءُ النَّهْر.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ تأكُلُ منهم أنعامُهُم؛ أي: الإبِلُ والبقَرُ والغَنَمُ، وكذلك غيرُها، لكنَّه خَصَّ الأنعامَ؛ لأنَّها أكثرُ بأيدي النَّاس وأكثرُ مُلابَسَةً، وقوله تعالى: ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ أي: إنَّهم يأكلونَ من هذا الزَّرْعِ النَّابتِ منه.

والغالِبُ الذي يَنْبُت من الماء من الأنهارِ ومن السُّيول لا يحتاجُ إلى حَرْثٍ؛ إذ تُنْبِتُه الأَرْضُ، فكُلُّ البراري تَنْبُت بدون حَرْثٍ.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ الاسْتِفْهامُ هنا للتَّوبيخِ، يعني فالواجِبُ أن يُبْصِروا ما يرونه بأَعْيُنِهم ويستدِلُّوا به على كمالِ نعْمَةِ الله وقُدْرَتِه؛ ويَسْتَدِلُّون به على أَمْرٍ آخر وهو القُدْرَةُ على إحياءِ الموتى، فالأَرْضُ الجُرُزُ الخالِيَةُ من النَّبات يأتيها هذا الماءُ فتَنْبُتُ بإذن الله عَزَّوَجَلَّ فالله تعالى القادِرُ على إحيائها قادرٌ على إحياءِ الموتى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: وجوبُ النَّظَرِ في الآيات؛ لأنَّ الاسْتِفْهامَ هنا للتَّوبيخِ ولِلَوْمِ مَنْ لم يَنْتَفِعْ بذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ أفعالِ الله الاختياريَّة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّا نَسُوقُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيان قُدْرَةِ الله؛ حيثُ يَسُوقُ الماءَ جوًّا أو برًّا إلى هذه الأَراضي الخالِيَة المَيْتة الهامِدَة فتَنْبُت؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الأَصْلَ فيما نَبَتَ في الأرض الحِلُّ، يُؤْخَذُ من قوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾؛ فالأَصْلُ فيما نبت في الأرض أنه حلالٌ حتى يقومَ دليلٌ على التَّحْريمِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بيان قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ بإحياءِ الأرضِ بعد مَوْتِها؛ لقوله تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الإشارَةُ إلى أعلى درجاتِ اليَقينِ، وهي (حَقُّ اليقينِ) تُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾ فهم لا ينظرون إليه فقط، ولكنَّهم يأكلون منه، وهذا هو حقُّ اليَقينِ.

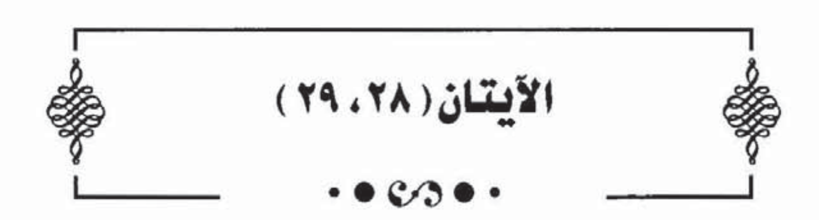
الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ المِلْك بالأَنْعام؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْعَامُهُمْ﴾ فالإضافَةُ هنا إضافَةُ مِلْكٍ، ولكنَّه سبق لنا أنَّ كُلَّ مِلْكٍ يَثْبُتُ للإنسان فهو مِلْكٌ لله، لكنَّه مِلْك مقيَّدٌ، فالإنسانُ لا يملك الشَّيْء مِلْكًا مُطْلَقًا يتصرف فيه كما شاء، وإنما يَمْلِكُ مِلْكًا مُقَيَّدًا في تَحْصِيله وتَمْويلِهِ وتَصْريفِهِ.

فهو مقيَّدٌ بالتَّحْصيل؛ فلا تُحَصِّلْه إلا على الوَجْهِ المَشْروعِ، وفي تمويله يعني الاتِّجار به، وفي تَصْريفِهِ؛ أي: لا تُصَرِّفه إلا مُقَيَّدًا، فهل بعد هذا يكون المِلْكُ حقيقيًّا؟

الجوابُ: لا، إِذَنْ مِلْكُكَ للأشياءِ -حتى مِلْكُكَ الخاصُّ كالبيت والسيارة والثَّوْب- ليس مِلْكًا مُطْلقًا، بل هو مِلْكٌ مُقَيَّد.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الحَثُّ على النَّظَر والتَّبَصُّر، يُؤْخَذ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

• • ۞ • •



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٨ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [السجدة:٢٨-٢٩].

•●○●•

قال تعالى: [﴿وَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنينَ ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ بيننا وبينكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾] أعوذ بالله! اسْتَبْطَؤُوا العذابَ فقالوا: متى هذا الفَتْحُ؟ وليس المرادُ فَتْحَ مكَّةَ، بل المراد: (الحُكْمُ بيننا؛ بأن تكون العاقِبَةُ لكم أيُّها المؤمنون وعلينا أيُّها الكافرون؛ متى يكون هذا الذي تُوعَدُون به!!)، فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وهذا الاسْتِفْهامُ للاستبطاءِ الدَّالِّ على الإنكارِ، وليس للاسْتِعْلامِ والاسْتِرْشادِ، ولكنَّه استبطاءٌ دالٌّ على الإنكارِ؛ يعني كأنَّهم يقولون: إن كُنْتُم صادقِينَ بأنَّكم على حقٍّ، وأنَّ العاقِبَة ستكون لكم، فأينَ ذلك؟!

وهذا في غايَةِ ما يكون من العِنادِ -والعياذُ بالله- وكان الواجِبُ عليهم أن يخافوا ممَّا وَعَدَهم به المؤمنونَ، لكن هم لا يُصدِّقونَ كِبْرًا وعنادًا؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ بإنزالِ العذابِ بهم ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾] فيه التفاتٌ من الخِطابِ إلى الغَيْبةِ؛ لَمَّا قال: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾

قال: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَـٰنُهُمۡ﴾ للعمومِ وللتَّسجيلِ عليهم بما يَقْتَضيهِ الفِعْلُ، وهو الكُفْر.

وقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ﴾ يعني: يومَ الفَصْلِ بيننا وبينكم والحُكْم: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَـٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾.

قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَـٰنُهُمۡ﴾: ﴿يَوۡمَ﴾ ظرفٌ منصوبٌ على الظَّرْفِيَّة، وعامِلُه قَوْلُه: ﴿يَنفَعُ﴾؛ ومن هنا نأخُذُ فائِدَةً نَحوِيَّة عظيمةً، وهي: أنَّ (لا) النافِيَةَ لا تَمْنعُ عَمَلَ ما بَعْدَها فيما قَبْلَها.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ يُمْهَلونَ لتوبةٍ أو مَعْذِرَة] فإذا جاءَ العذابُ للمُكَذِّبين فإن ذلك لا يَنْفَعُهُم، فإذا جاء العذابُ، ولو قالوا: آمنا؛ قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ (٨٤) فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَـٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ فإلى الآن نحن في قَضِيَّة معيَّنة، وليس هناك عمومٌ، لكن قال: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦ﴾ فقد مَضَتْ، يعني مَضَتْ سُنَّةُ الله عَزَّوَجَلَّ، أمَّا من آمن بعد معايَنَةِ العذابِ، فإن ذلك لا يَنْفَعُه؛ كما قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٔـٰنَ﴾ فليس له توبةٌ، وأمَّا قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ [النساء:١٨] فواضحٌ أنَّهم ماتوا على الكُفْرِ.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فيها دليلٌ على سَفَهِ هؤلاء المكَذِّبين وحُمْقِهِم؛ لقولهم: ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلۡفَتۡحُ إِن كُنتُمۡ صَـٰدِقِينَ﴾ والاسْتِفْهامُ قلنا: إنَّه لِلاسْتِبْطاء والتَّحدِّي للرَّسولِ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ومن كان معه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الحُكْمَ بين المؤْمِنِ والكافِرِ من الفَتْحِ؛ لأنَّ الله قال: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ﴾ فأقَرَّ هذه التَّسْمِيَة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيان عُتُوِّ الكافرين وإجرامِهم؛ لِكَوْنِهم يَتَحَدَّوْنَ الرَّسُولَ ﷺ والمؤمنينَ: متى هذا الحُكْمُ بيننا إن كنتم صادقينَ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ العذابَ إذا نزل لا يَنْفَعُ الإيمانُ، يُؤْخَذُ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّه إذا نزلَ العذابُ فلا إِنْظَارَ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

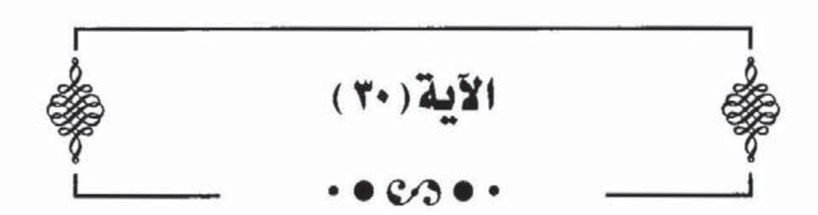
الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ العذابَ قد يُؤَجَّلُ قَبْلَ نزوله؛ لأنه يقول: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ﴾ فظاهِرُ الآية: أنه لو كان هذا الإيمانُ قبل نزولِ العَذابِ فإنَّ الله تعالى يَرْفَعُه بالإيمانِ؛ ولهذا أمر النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عند الكُسوفِ بالصَّلاةِ والدُّعاءِ والاسْتِغْفار[1] والصَّدَقَة والتَّكْبير[2] من أجل أن يُرْفَعَ العذابُ الذي هذا إنذارٌ به؛ فإنَّ الكسوفَ إنذارٌ بالعذابِ، وهو نَفْسُه ليس عذابًا، لكنَّه إنذارٌ بأن يُعذَّبَ الخَلْقُ، فإذا فَزِعُوا إلى الصَّلَاةِ وإلى الذِّكْر والدُّعَاء والاسْتِغْفار رُفِعَ عنهم.

• • ❁ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الكسوف، باب الذكر في الكسوف، رقم (١٠٥٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف، رقم (١٠٤٤)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف، رقم (٩٠١)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.



الآية (٣٠)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ [السجدة:٣٠].

• • • • •

قول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ ﴾ إنزالَ العذابِ بهم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ بكَ حادِثَ موتٍ أو قَتْلٍ فيَسْتَريحون منكَ، وهذا قبلَ الأَمْر بقتالِهم].

قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ ﴾ أَعرِضْ عنهم، ليس المرادُ إعراضًا عن دَعْوَتِهم، بل المراد: لا تَهْتَمَّ بهم، يعني لا تَجْعَلْ نَفْسَك متعلِّقَةً بهم وانتظِرْ، وهنا المفعولُ محذوفٌ؛ يعني: انتظر نزولَ العذابِ بهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ يُحتَمَل أن يكون المعنى ما قاله المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي مُنْتَظِرون أن يَنْزِلَ بك هلاكٌ بقتلٍ أو غَيْرِه، أو: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ باعتبارِ الواقِعِ، لا أَنَّهُم منتظِرونَ إهلاكَكَ؛ يعني أَنَّهُم منتظرونَ العذابَ الواقِعَ بهم، فهم كأَنَّهُم لِتَمادِيهِمْ في الكُفْرِ ينتظرونَ ما يَنْزِلُ بهم من العذابِ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ [هذا قبلَ الأَمْرِ بِقِتالِهم] معناه: أنَّ الآيَةَ مَنْسُوخةٌ، وليس كذلك، بل الصَّحيحُ أنها قَبْلَ الأَمْر بالقتالِ؛ لأن هذه السُّورة مكيَّة فهي قبل الأمر بالقتال بلا شكٍّ، لكنَّها ليست منسوخَةً؛ لأنَّ الأَمْرَ هنا بالإعراضِ عنهم، والانتظارُ ليس معناه أَلَّا نقومَ بما يَجِبُ.

فالآن نحن نَنْتَظِرُ أن يُنْزِلَ الله تعالى العذابَ في الكفَّارِ، لكنْ مع ذلك ندعوهم ونُقاتِلُهُم إذا كان لدينا قُدْرَةٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ المكابِرَ يُعـرَضُ عنه ويُتْرَكُ حتى ينـزِلَ به العذابُ؛ فإذا رَأَيْتَ من يكابِرُ، تَأْمُرُه بالحقِّ ولكن يكابِرُ ويجادِلُ ويعانِدُ، فاتْرُكْه؛ لأن بقاءَكَ معه لا يُجْدي شيئًا، فالإنسانُ المكابِرُ الذي يقول: هذه لَيْسَتْ بِشَمْسٍ، ولكن هذا قَمَرٌ، وهو الآن في الضُّحى، ونقول: انظر الشَّمْس! قال: لا، أنت غلطان؛ نحن الآن بعْدَ صلاةِ العِشاء، وهذا الذي تراه إنما هو القَمَر؛ فهذا لا تَتَكَلَّمْ معه أبدًا، بل تَطْلُب من يَقْرَأ عليه أو من يداويه لأنه مجنونٌ، وكذلك من تُريهِ الحَقَّ مثلَ الشَّمْسِ والحَقَّ أَبْيَنَ من الشَّمْس، ثم يقول: لا، هذا غيرُ صحيحٍ، فإن هذا ينبغي أن يُطْلَبَ له من يداوي عَقْلَه قبل فِكْرِه؛ فهذا مكابِرٌ لا فائِدَة للكلامِ معه؛ ولهذا يقول الشاعر:

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الْأَفْهَامِ شَيْءٌ ... إِذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلِ[1]

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ المُكَذِّبَ لا يَنْتَظِرُ إلا العذابَ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾.

وأما تفسيرُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أن يحِلَّ بك هلاكٌ أو نحوه؛ فهذا فيه نَظَرٌ، بل يقال: إنَّهم مُنْتَظِرونَ للعذاب لِكَوْنِهِمْ اسْتَمَرُّوا على كُفْرِهم فهم كالمُنْتَظِرينَ لما يَنْزِلُ بهم، وقد يقال: إنَّ الآيَةَ تَشْمَلُ المعنيينِ جميعًا؛ يعني: هم ينتظرون أن تموتَ ويَنْتَظِرون عذابَهُم باستمرارِهِم على المَعْصِيَة؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

---

(١) البيت للمتنبي، انظر: ديوانه (ص:٣٤٣).

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ ولهذا إذا مات الكافِرُ يُعذَّبُ مباشرةً، بل إنَّه يُحِسُّ بالعذابِ في حالِ النَّزْعِ؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

وبهذا انتهت هذه السُّورَةُ التي كان الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقرأ بها في فَجْرِ يومِ الجُمُعَةِ[1] ويُضيفُ إليها في الرَّكْعَةِ الثَّانِيَة: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ سورةُ الإنسان.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة، رقم (٨٩١)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في يوم الجمعة، رقم (٨٨٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.